عبد العظيم بن بدوي الخلفي

رحلة في رحاب اليوم الآخر

دار ابن رجب

١٤١٦ هـ ــ ١٩٩٦ م

رقم الإيداع : ١٩٤٥ / ١٩٩٦ م



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله. نحمده ونستعينه ونستغفره. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلّ له. ومن يضلل فلا هاديَ له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله:

﴿يا أيّها الذين آمنوا اتقوا اللّه حقّ تقاته . ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يا أيّها الناس اتّقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء، واتقوا اللّه الذى تساءلون به والأرحامَ، إن اللّه كان عليكم رقيباً﴾ [النساء: ١].

﴿يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا اللّه وقولوا قولاً سديدًا * يُصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع اللّه ورسولَه فقد فاز فوزًا عظيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدقَ الحديث كلامُ الله، وخيرَ الهدى هدىُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثة بدعةٌ، وكلَّ بدعة ضلالةٌ، وكلَّ ضلالة في النار[1].

ثم أما بعد: فهذه خُطَبٌ ألقيتُها فى الجامع الكبير بمدينة سحاب/ شرقى عمّان البلقاء، فى الفترة من (١٧ / ١٢ / ١٤٠٦ هـ. الموافق ٢٢ / ٨ / ١٩٨٦م) إلى (٢٢/٦/١٤٠٧ هـ. الموافق ٢٠/٢/١٩٨٧م) وقد كانت والحمد لله خُطَبًا موفّقة، رأيت الجماهير يحرصون عليها ويتابعونها باهتمام بالغ.

فلما انتهيت منها رأيتُ أن أقومَ بنسخها من الأشرطة التى سُجِّلَتْ عليها،

---

(١) م (٤٦٧/٥٩٢/٢)، نس (١٨٨/٣).

ففعلت ولم أزد على تهذيبها، ونسبة الأحاديث التى جاءت فيها إلى من رواها من أهل السنن، مُقْتصرًا على نسبتها للشيخين أو أحدهما أو غيرهما من أصحاب السنن، ذاكرًا وجود الأحاديث التى رواها غير الشيخين فى صحيح الجامع، ليطمئن القارىء على صحة الأحاديث التى جاءت فى هذه الخطب.

وإنى لأرجو أن ينفع اللهُ بهذه الخطب مكتوبةً كما نفع بها مسموعةً، وأسأله سبحانه أن يتقبلها منى بقبول حسن، وأن يجعلنى «ممن دعا إلى الله، وعمل صالحًا، وقال إننى من المسلمين».

وقد كان الفراغ من تبييضها فى ضحى الخميس ١٨/٨/١٤٠٧ هـ
بمنزلى الواقع جنوبى سحاب. ١٦/٤/١٩٨٧ م

وكتبه: عبد العظيم بن بدوى الخلفى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن هذه الرحلة كما ذكرت فى مقدمة الطبعة الأولى حاذت إعجاب الجماهير وهى خطب مسموعة، وما أن طبعت حتى حاذت إعجاب القراء وذلك كلّه من فضل الله علينا وعلى الناس.

وقد رأيت إعادة طبعها تلبية لحاجة المحبّين، فقمت بقراءتها وتهذيبها وتخريج أحاديثها تخريجاً وافياً، وكتبت أمام كل حديث درجته من الصحة والحُسن، معتمداً فى ذلك على كتب شيخنا الألبانى ـ أطال الله حياته ـ، وأرجو أن تنال هذه الطبعة إعجاب المحبّين كسابقتها، وما ذلك على الله بعزيز.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

وكتبه

عبد العظيم بن بدوى الخلفى

ضحى يوم الأحد ١٣/٥/١٤١٦ هـ

٨/١٠/١٩٩٥ م

بمنزلى الكائن بقرية الشين / قطور / غربية

آيات من سورة ق

قال الله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسُه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد * إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد * وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد * ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد * وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد* لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد * وقال قرينه هذا ما لدى عتيد * ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد * مناع للخير معتد مريب * الذى جعل مع اللّه إلهًا آخر فألقياه فى العذاب الشديد * قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد * قال لا تختصموا لدىَّ وقد قدمت إليكم بالوعيد * ما يبدل القول لدىَّ وما أنا بظلم للعبيد * يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد * وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ * من خَشِىَ الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب * ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد * وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشًا فَنَقَّبُوا فى البلاد هل من محيص * إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [سورة ق: ١٦ - ٢٧].

آيات كريمات بَيِّنات، من سورة كريمة عظيمة، كان رسولُ الله ﷺ يخطب بها فى المحافل العامة والمجامع العظيمة، حتى أنّ امرأةً من نساء أصحاب رسول الله حفظتْ تلك السورةَ من كثرة ما سمعتْ رسولَ الله ﷺ يخطب بها، تقول أم هشام بنت حارثة: «لقد كان تنّورنا وتنوّر النبىّ ﷺ واحداً سنتيْن، أو سنةً وبعضَ

سنة، وما أخذتُ ﴿ق * والقرآنِ المجيد﴾ إلا على لسان رسولِ الله ﷺ، كان يقرؤها كلّ يوم جمعة إذا خطب الناس»[1].

سورة «ق» سورةٌ ذكر اللهُ تبارك وتعالى فيها أصولَ الدين وأركانَ الإيمان:

ذكر الله تعالى فى هذه السورة صفاتِ عظمته وقدرته وجبروته.

كما ذكر المبدأ والمعاد، أوّلَ خَلْق الإنسان ونهايتَه، وما بينهما، . . . . .

كما قرر الله تعالى فى هذه السورةِ البعثَ، والحسابَ، والجزاءَ، والجنة، والنار.

وذكر القيامةَ الصغرى - وهى الموت - والقيامةَ الكبرى - وهى الساعة -.

كما ذكر العَالَمَيْن: العالمَ الأصغر وهو عالم الدنيا، والعالمَ الأكبر، وهو عالم الآخرة.

كذلك ذكر اللهُ تبارك وتعالى صفاتِ أهل النار، وصفاتِ أهل الجنة.

ثم قال عقب كلّ هذا: ﴿إنّ فى ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أوْ ألقى السمع وهو شهيد﴾[2].

إننا نعيش فى هذه الحياة الدنيا مراقبين مراقبة شديدة، إننا مراقبون مراقبة تامة، فالله تبارك وتعالى مُطّلع علينا، وناظر إلينا، وشاهدٌ علينا، يعلم السرّ وأخفى، لا تخفى عليه خافيةٌ فى الأرض ولا فى السماء.

ومع ذلك فإنّ الله عز وجل لم يكتفِ فى حساب خَلْقه بعلمه بما كان منهم، ولم يكتفِ بشهادته عليهم، وإنما اتخذ شهودًا كثيرين على خلقه يشهدون عليهم، فالملائكة يشهدون، والأنبياء يشهدون، والأرض تشهد، والسماء تشهد، والأيام والليالى تشهدان، وفضلاً عن هؤلاء الشهود جميعًا، فإن الأعضاء والجوارح تشهد على صاحبها، ويستنطقها ربّنا عزّ وجل فتنطق بما عملت، يقول الله تعالى:

---

(١) صحيح: رواه م (٨٧٣/ ٩٤/ ٢). وهذا لفظه، وبنحوه رواه د (١٠٨٧/ ٤٤٩/ ٣)، نس (١٠٧/ ٣).

(٢) انظر «الفوائد» لابن القيم (ص ٥).

﴿ويومَ يُحشرُ أعداءُ اللَّه إلى النار فَهُم يوزَعون * حتى إذا ما جاءوها شَهِدَ عليهم سمعُهُم وأبصارُهُم وجُلُودُهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجُلُودهم لم شَهِدتُم علينا قالوا أنطَقَنَا اللَّه الذى أنطَقَ كُلَّ شىء وهو خَلَقكُم أول مرة وإليه تُرجَعُون * وما كنتم تَستَترون أن يشهَدَ عليكُم سمعُكُم ولا أبصارُكُم ولا جُلُودكُم ولكن ظَنَنتُم أنَّ اللَّه لا يَعلَمُ كثيرًا مما تَعمَلُون * وذلكُم ظَنُّكُم الذى ظَنَنتُم بربِّكُم أردَاكُم فَأصبحتُم من الخَاسرين * فإن يَصبِرُوا فالنارُ مَثوى لهم وإن يَستَعتِبُوا فما هُم من المُعتَبين﴾ [فصلت: ١٩ - ٢٤].

فاتقوا الله عباد الله فى أنفسكم، واعلموا أن كل ما يصدر عنكم من قول وعمل مُسَجَّل عليكم، قال الله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسانَ ونَعلمُ ما تُوسوس به نفسُهُ، ونحن أقربَ إليه من حَبل الوَريد * إذ يَتَلَقى المُتَلَقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يَلفظ من قول إلا لديه رقيبٌ عتيد﴾، وقال تعالى: ﴿وكلَّ إنسانٍ ألزمناهُ طائرهُ فى عُنُقه ونخرج لَه يوم القيامة كتابًا يلقاهُ منشُورًا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

ثم ذكر الله تعالى القيامة الصغرى، وهى الموت، فقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾.

بالحق الذى لا يتأخر، بالحق الذى لا ريب فيه ولا شك، وجاءت سكرة الموت بالوعد الحقِّ الذى أخبرنا الله تبارك وتعالى عنه.

ثم قيل للمحتضر: ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾، هذا الذى تراه وتشاهده، هذا الذى تعاينه من نزول ملائكة الموت إليك لقبض روحك، ذلك الذى تراه أمامك: ما كنتَ منه تحيد، أى ما كنت منه تهرب، وما كنت منه تفرّ، وكنت تظن أنك لن تلقاه، قد نزل بساحتك، فما تستطيع هربًا، ولا تستطيع فرارًا.

تلك هى القيامة الصغرى، فمن مات فقد قامت قيامته.

الموت حقٌّ لن يتخلف ولن يتأخر إذا جـاء أجله، كما قال تعالى: ﴿**ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾ [الأعراف: ٣٤].

الموت حق، فماذا أعددنا له؟ الموت قادم، فما هي استعداداتنا لاستقباله؟

﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللَّه ولتنظر نفس ما قدّمت لغد واتقوا اللَّه إن اللَّه خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا اللَّه فأنساهم أنفُسَهُم أولئك هم الفاسقون * لا يستوى أصحابُ النارِ وأصحابُ الجنةِ أصحابُ الجنةِ هم الفائزون**﴾ [الحشر: ١٨-٢٠].

إن الناس عند الموت أحد رجلين:

إما رجل تذكّر الموت واستعدّ لنزوله، فذلك تتنزل عليه الملائكة بالبشرى:

﴿**ألا تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون**﴾ [فصلت: ٣٠].

وإما رجـل انهمك فى الدنيـا، وشغلتـه الدنيا عن الآخـرة، فنسى اللهَ والدارَ الآخرة، ونسى المـوتَ، ركَنَ إلى الدنيا، واطمأن لـها، وظن أنه لن يخـرج منها: ﴿**ودخل جنتـه وهو ظالم لنفسـه، قـال: ما أظن أن تبـيد هذه أبدا، ومـا أظن الساعـة قائمة**﴾ [الكهف: ٣٥].

هذا الرجل إذا جاءه الموت صاح قائلاً: ﴿**ربِّ، لولا أخّرتنى إلى أجل قريب، فأصدّق وأكن من الصالحين، ولن يؤخر اللَّه نفسا إذا جاء أجلها...**﴾[المنافقون: ١٠].

حتى إذا أفنى اللهُ العـالمَ، ثم أراد أن يبعثـه، أحيا إسرافـيلَ فنفخ فى الصور النفخةَ الثانيـة للبعث، لتُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت: ﴿**ونفخ فى الصـور، ذلك يوم الوعيد**﴾. وتلك هى القيامة الكبرى، وتطايرت الصحف، وأخذ كلٌّ كتابه بيمينه، أو بشماله من وراء ظهره، ثم بعد شفاعة المصطفى ﷺ فى أهل الموقف يأتى الربُّ عزّ وجلّ لفصل القضـاء بين العباد، وحينئذ تقوم الملائكة بين يـديه سبحانه ينادون على أهل الموقف واحداً بعد الآخر: لِيَقُمْ فُلانُ ابن فلان، فيتقدّم للعرض على الله عز وجل بين ملكين: أحـدهما يشهـد عليه، والآخر يسوقـه، وهذا هو قول الله:

﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد. لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾. حتى إذا مثلوا بين يدى الربّ سبحانه تقدم أحد الملكين قائلاً: **﴿هذا ما لدىّ عتيد﴾**، يارب هذا الذى وكّلتنى به وبحفظ أعماله وتسجيل ما يَنْدُر منه، لدىّ عتيد، حاضر، ومُعَدّ، ومُهَيَّأ الآن لتحكم فيه.

ولم تذكر الآيات ما يدور بين الله عز وجل وبين العبد إذا قام للحساب، وإنما نطقت الآيات بالحكم مباشرةً للدلالة على سرعة الحساب، وسرعة الفصل بين الناس: **﴿ألا له الحُكم وهو أسرَعُ الحاسبين﴾** [الانعام: ٦٢] . **﴿ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد * مناع للخير معتد أثيم الذى جعل مع اللّه إلهاً آخر فألقياه فى العذاب الشديد﴾** [ق: ٢٤ - ٢٦] .

فذكر الله تعالى لأهل النار ست صفات: ألقيا فى جهنم كل:

كفَّار: كثير الكفر، حيث كفر بنعم الله وجَحَدها، وكفر بالله وأسمائه وصفاته، وكفر بالملائكة والنبيين، والكتب المنزّلة على المرسلين.

عنيد: إن كفر الكافر ليس لعدم وضوح الحق له، وإنما كفره كفر عناد وجحود، كما قال ربّنا عن آل فرعون: **﴿وجَحَدُوا بها واستَيقَنَتها أنفُسُهُم ظُلماً وعُلواً﴾** [النمل: ١٤] . وكما قال ربنا لنبيه ﷺ: **﴿قد نَعلمُ إنَّه لَيحزُنُكَ الذى يقولون، فإنهم لا يُكَذِّبونَكَ، ولكن الظالمين بآيات اللّه يجحدون﴾** [الانعام: ٣٣] .

مَنَّاع للخير: وأيّ خير بعد الخير الذى أتى به محمد ﷺ، ومن رَفَضَ الخير الذى أتى به محمد فأىّ خير يجلبه إلى نفسه. إن الخير كله، والفوز كله، والنجاة كلها، والسعادة كلها فى قبول ما جاء به محمد ﷺ، والذى يرفض ما جاء به محمد ﷺ من خير فأى خير قدَّمه لنفسه، إنه منّاع للخير عن نفسه، وهو أحرى أن يمنع الخير عن الآخرين، لأن فاقد الشىء لا يعطيه، الذى يمنع الخير عن نفسه لا يمكن أن يصل منه للآخرين خيرٌ.

مُعْتَد: إنه لم يكتف بمنع الخير عن الناس، بل منع الخير عنهم ووصّل إليهم الشر والأذى.

مريب: يعيش فى شك وفى ريب، لا يعرف الصدق ولا الأمانة ولا الإيمان.

الذى جعل مع اللَّه إلهًا آخر: يُحبّه، ويوالى له، ويعادى له، ويدعوه من دون الله، ويستنصر به من دون الله، يذبح له، وينذر له، ويستغيث به، ويستشفى به من دون الله ﴿**الذى جعل مع اللَّه إلهًا آخر، فألقياه فى العذاب الشديد**﴾.

وحينذاك نطق قرينُه من الجنّ يدافع عن نفسه: ﴿**قال قرينُه: ربنا ما أطغيتُه ولكن كان فى ضلال بعيد**﴾. قال الرب عزّ وجلّ: ﴿**لا تختصموا لدىّ، وقد قدمت إليكم بالوعيد، ما يُبَدَّلُ القول لدىّ، وما أنا بظلام للعبيد. يوم نقول لجهنم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟**﴾. ولا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع ربّ العزة قدمه عليها، فينزوى بعضها إلى بعض وتقول: «قط قط»[١]. أى الآن فقط امتلأت، ولا يبقى فى النار موضع إلا وفيه رجل يعذب.

أما أهل الجنة فقد ذكر الله لهم أربع صفات:

﴿**وأُزلفت الجنة للمتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لكل أوابٍ حفيظ * من خَشِىَ الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب**﴾.

أوّاب: أى كثير الرجوع إلى الله بالإنابة والتوبة والاستغفار.

حفيظ: يحفظ حدود الله، وحقوق الله، ومحارم الله.

من خشى الرحمن بالغيب: فحملَه الخوفُ من الله على القيام بالواجبات، وترك المحرمات.

وجاء بقلب منيب: مخبت، سليم.

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٧٣٨٤/ ٣٦٩/ ١٣)، م (٤٨٤٨/ ٢١٨٧/ ٤)، ت (٣٣٢٦/ ٦٥/ ٥).

فهؤلاء ﴿تتلقاهم الملائكة: هذا يومكم الذى كنتم توعدون﴾[الأنبياء: ١٠٣]. ﴿ادخلوها بسلام: ذلك يوم الخلود﴾. لن تخرجوا منها أبدًا، ولن يفنى ملككم فيها ولن يَبيد، لأن ذلك اليوم يوم الخلود: ﴿لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾ والزيادة هى النظر إلى وجه الكريم سبحانه وتعالى.

* * *

علامات الساعة الصغرى

إن الموت ليس له علامات لازمة تدل على وقوعه ونزوله بالمرء، وإنما الموت يأتى بغتة:

فكم من صحيحٍ مات من غير علةٍ وكم من عليلٍ عاش حينًا من الدهرِ

ولذا فإن على المرء أن يكون دائماً مستعداً للموت، فإنها آجال معدودة: **﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾** [الأعراف: ٣٤].

أما القيامة الكبرى فإن الله تبارك وتعالى من رحمته بعباده جعل لها علامات لازمةً تدل على قربها وقيامها: **﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة، فقد جاء أشراطها﴾** [محمد: ١٨] أى علاماتها والأمارات التى تدل على قربها: **﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾** [القمر: ١]. **﴿اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحْدَث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم﴾** [الأنبياء: ١-٣]. **﴿أتى أمر اللَّه فلا تستعجلوه﴾** [النحل: ١].

وهذه العلامات والأمارات التى تدل على قرب الساعة:

منها علامات قد ظهرت وانقضت.

ومنها علامات ظهرت وما زالت تتفشى وتظهر على صورة أكبر وأوضح فى الناس.

ومنها علامات لم تُرَ بعد، وهذه هى التى تعقبها الساعة ولا تتأخر عنها أبدا.

فمن علامات الساعة التى ظهرت ومضت:

بِعْثَةُ النبى ﷺ، قال ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين»[1] ويضم بين إصبعيه

(١) متفق عليه: رواه خ (٦٥٠٤/٣٤٧/١١)، م (٢٩٥١/٢٢٦٨/٤)، ت (٢٣١١/٣٣٦/٣).

السبابة والوسطى، كما أن موته ﷺ كذلك أمارة من أمارات الساعة، روى البخارى من حديث عوف بن مالك قال: أتيت النبىَّ ﷺ فى غزوة تبوك وهو فى قبة من أُدم، فقال: «اعدد ستًّا بين يَدَيِ الساعة: مَوْتى، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقُعاص الغنم...»(١) الحديث.

ومنها: اقتتال فئتين عظيمتين على ملة واحدة، ودعواهما واحدة، وهى المعركة التى كانت بين علىّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما، فقد أخبر بذلك رسولُ الله ﷺ(٢)، وقد كان كما أخبر.

ومنها: خروج نار من المدينة أُضيئَتْ لها قصور الشام، كما قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضىء أعناق الإبل ببصرى»(٣).

هذه علامات من علامات الساعة التى ظهرت وانقضت، وتسمى العلامات الصغرى.

وأما العلامات التى ظهرت وما تزال تظهر وتتفشّى فى الناس:

فمنها: ما أخبر به رسول الله ﷺ فى الحديث الذى رواه الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أشراط الساعة: أن يُرْفَع العلم، ويظهر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر، ويَقِلَّ الرجال، وتكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيِّم الواحد»(٤).

---

(١) صحيح: رواه خ (٦/٢٧٧/٣١٧٦)، [الطحاوية: ٧٥٨].

(٢) متفق عليه: رواه خ (١٣/٨١/٧١٢١)، م (٢٨٨٨ - ١٥٧ -/ ٢٢١٤/ ٤).

(٣) متفق عليه: رواه خ (١٣/٧٨/٧١١٨)، م (٢٩٠٢/ ٢٢٢٧ و٢٢٢٨/ ٤).

قال القرطبى فى «التذكرة» (٦٣٦): وقد خرجت نار عظيمة وذلك ليلة الأربعاء بعد العتمة، الثالث من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة إلى ضحى النهار يوم الجمعة فسكتت وظهرت النار بقرطبة عند قاع التنعيم بطرف الحرة يحيط بها ترى فى صورة البلد العظيم كأعظم ما يكون من البلدان عليها سور تحيط بها، عليه شرافات كشرافات الحصون وأبراج ومواذن، ويرى رجال يقودونها لا تمر على جبل إلا دكته وأذابته، وسمعت أنها مشت من مكة ومن جبال بصرى. اهـ.

(٤) متفق عليه: رواه خ (٨٠، ٨١/ ١٧٨/ ١)، م (٢٦٧١/ ٢٠٥٦/ ٤)، ت (٢٣٠١/ ٣٣٣/ ٣)، جه (٤٠٤٥/ ١٣٤٣/ ٢).

والمراد برفع العلم: العلم الشرعى، العلم المأخوذ عن الله ورسوله، العلم الذى يدل الناسَ على الخير ومعرفة الله بأسمائه وصفاته، العلم الذى يُعَرِّف الناس كيف يعبدون الله تبارك وتعالي، العلم الذى يدل الناس على طريق النجاة والفوز بالجنة.

وهذا العلم الشرعى قد قلّ وجوده، وندر رجاله، وزهد الناس فيه، وأعرض أبناء المسلمين عن دراسته، وحرص رجال المسلمين على أن يُنَشِّئوا أبناءهم تَنْشِئَةً غربية أو شرقية، بعيدة عن تعاليم الإسلام، وعن العلم الذى جاء به نبى الإسلام محمد ﷺ.

نعم، لقد رُفِعَ العلم أو كاد، وانتشر الجهل، ولم يعد فى القبيلة كلها أو فى البلد كله من يُفْتى الناس، ويُعَرِّفهم بربهم المعرفة الحقيقية على وفق ما أرسل الله به محمداً ﷺ.

وأما الخمر فقد شُرِبَت، كما أخبر بذلك الذى لا ينطق عن الهوى، ﷺ، نعم، المسلمون قد شربوا الخمر، وبيوت المسلمين قد أديرت فيها كؤوس الخمر، والثلاجات فى البيوت قد وضعت فيها زجاجات الخمر بجوار زجاجات الماء. ولاحول ولا قوة إلا بالله.

شُرِبَت الخمر، والخمر أم الخبائث، ومن شرب الخمر وقع على أمه وابنته وأخته، لأن الخمر تخمّر العقل، والإنسان بغير عقل حيوان، لا يميز بين الحلال والحرام، ولا يفرق بين ابنته وزوجته. شُرِبَت الخمر، والخمر رجس، ومن عمل الشيطان، ولا يفلح أهلُها أبدًا.

قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما الخَمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجسٌ من عَمَلِ الشيطانِ فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾ [المائدة: ٩٠]. فمن لم يجتنب الخمر لا يفلح أبدًا.

وقد قال رسول الله ﷺ: «إن على الله عهدًا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال، قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: عرق أهل النار، أو عصارة أهل النار»[١].

شُرِبَت الخمر واستُحِلَّت، وغُيِّرت أسماؤها ليحتال أعداء المسلمين عليهم بهذه المسمّيات فاحذروا أيها المسلمون أعداءكم، ولا تنخدعوا بهم، فكل مسكر خمر، مهما كان اسمه، فاجتنبوه لعلكم تفلحون.

ومن أشراط الساعة أن يظهر الزنا وقد ظهر، وقد فُقِدَ الحياء من النساء، وخرجن كاسيات عاريات، ليس عليهن ما يستر عورة، فكيف لا يشيع الزنا، وكيف لا تشيع الفاحشة، والنظرة سهم مسموم من سهام إبليس، و:

كُلّ الحوادثِ مَبْدَاها من النظر ... ومُعْظَمُ النارِ من مُسْتَصْغَرِ الشرر

ظهر الزنا، والزنا فاحشة لا تشيع فى قوم إلا آذنت بهلاكهم ودمارهم. كما قال ﷺ: «إذا ظهر الزنا والربا فى قوم فقد أحلّوا بأنفسهم عذاب الله»[٢].

والله تبارك وتعالى قد توعّد الزناة أن يذيقهم شديد العذاب، قال تعالى: **﴿والذين لا يدعون مع اللّه إلهًا آخر، ولا يقتلون النفس التى حرم اللّه إلا بالحق، ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يَلْقَ أثاما، يُضاعَفْ له العذاب يوم القيامة، ويخلُد فيه مُهَانًا﴾** [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

ومن أشراط الساعة أن يَقِلَّ الرجال، ويكثر النساء، قد تكون الحروب سبباً فى ذلك، لأن الرجال هم أهل الحرب، والحرب تدمّر وتهلك، فيموت الرجال، ويبقى النساء، وقد تكون إرادةُ الله، فتكون المواليد من النساء أكثر من الرجال، فيقلّ الرجال، ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيّم الواحد، الرجل الواحد

---

(١) صحيح: رواه م (٢٠٠٢/١٥٨٧/٣)، نس (٨/٣٢٧).

(٢) صحيح: رواه كم (٢/٣٧)، [غاية المرام: ٣٤٤].

يعول خمسين امرأة، من نسائه وبناته وأخـواته، وعماته وخالاته، وقد كاد هذا أن يكون.

هذه أشراط للساعـة، وأمارات لقربها، أخبر بها الـصادق المصدوق ﷺ، وقد وقعت وظهرت على النحو الذى أخبر به، فماذا عساكم تنتظرون؟ الموت،، فإنه أول وارد من الله عليكـم بخيـــر أو بشـر، فيا معـشر المسلمين سيـروا إلى ربكم سـيراً حثيثًا.

ومن أشـراط الساعـة، مـا أخبـر به النبى ﷺ فى قـوله: «يُوشِكُ أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كمـا تداعى الأكَلَةُ إلى قصعـتها. قـيل: يا رسول الله، فمن قلة يومـئذ؟ قال: لا ولكنكم غثـاء كغثاء السـيل، يُجعل الوهن فى قلوبكم، ويُنزَع الرعب من قلوب عدوكم، لِحُبِّكُم الدنيا وكراهيتكم الموت»[1]. وقد كان هذا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومنهـا: أن تفقـد الأمانة، حـتى يقال: إن فى بنى فـلان رجلاً أمـينًا، روى البخارى من حديث أبى هريرة قال: بينمـا النبى ﷺ فى مجلسٍ يحدّث القوم جاءه أعرابى فقـال: متى الساعة؟ فـمضى رسول الله ﷺ يُحَدِّث. فقـال بعض القوم: سمع مـا قال فكره ما قـال. وقال بعضـهم: بل لم يسمع. حتى إذا قـضى حديثَه قال: أين أراه السائـل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسـول الله، قال: «فإذا ضُيِّعَت الأمانة فانتظر الساعـة». قال: كيف إضاعتها؟ قـال: «إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[2].

ومنها: كَثْرَةُ الهرْج ـ أى القتل ـ انظـر يمينًا وشمالاً لا ترى إلا الحرب، وانظر إلى حيث شئت ترى الحروب الطاحنة تفتك بالرجال، وتأتى على الأخضر واليابس

---

(١) صحيح: رواه د (٤٢٧٦/ ٤٠٤/ ١١). [الصحيحة: ٩٥٨].

(٢) صحيح: رواه خ (٥٩/ ١٤١/ ١).

وهذا أخبر عنه النبى ﷺ أن الهرج من علامات الساعة، والهرج هو القتل، لا يدرى القاتل فيم قَتَلَ، ولا المقتول فيم قُتل[١].

ومنها كثرة الزلازل، كما فى قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، وتكثر الزلازل»[٢].

ومنها: تقاربُ الزمان، والمقصود بتقارب الزمان نَزْعُ البركة من الوقت، فما إن تصبح حتى تمسى، وما إن تمسى حتى تصبح، وهكذا، حتى جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يتقارب الزمان حتى تكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كاحتراق السعفة»[٣]. أى كاحتراق الجريدة من النخل.

ومنها: قوله ﷺ لجبريل وقد سأله: «متى الساعة؟» فقال: ما المسؤل عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرنى عن أماراتها. قال: أن تلد الأَمَةُ ربّتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان[٤].

فيا معشر المسلمين: اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد. بادروا بالتوبة، وبادروا بالصلح مع الله، وبادروا بالعودة إلى كتاب الله وسنة رسول الله، وتمسكوا بهما فلن تضلوا ما تمسكتم بهما، ابن آدم: لا يغرنّك الأمل، لا تغرنك الصحة، لا تغرنك العافية، لا يغرنك الجاه، لا يغرنك الشيطان، لا يغرنك المال، فذلك كله متاع الحياة الدنيا، ولا ينفع عند الله: ﴿**ولقد جئتُمُونا فُرادَى كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خوّلناكم وراء ظُهوركم**﴾ [الأنعام: ٩٤].

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يثبتنا على الإيمان ويختم لنا به.

* * *

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٧٠٦٢ و ٧٠٦٣/ ١٣/ ١٣)، م (٢٦٧٢/ ٢٠٥٦/ ٤)، ت (٢٢٩٦/ ٣٣١/ ٣).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧١٢١/ ٨١/ ١٣).

(٣) صحيح: رواه ت (٢٤٣٤/ ٣٨٧ و ٣٨٨/ ٣). [المشكاة: ٥٣٨٩].

(٤) صحيح: رواه م (٨/ ٣٦/ ١)، ت (٢٧٣٨/ ١١٩/ ٤)، د (٤٦٧٠/ ٤٥٩/ ١٢)، جه (٦٣/ ٢٤/ ١)، نس (٩٧/ ٨).

علامات الساعة الكبرى

١ - المهـدى

﴿إن اللَّه عنده علم السـاعة، وينزّل الـغيث، ويعلم مـا فى الأرحام، ومـا تدرى نفس مـاذا تكسب غـدا، ومـا تدرى نفس بأىّ أرض تموت، إن اللَّه عليـم خبيـر﴾ [لقمان: ٣٤].

لا أحـد يعلم مـتى السـاعة إلاالله، ولذلـك لما سئل رسـول الله ﷺ: مـتى الساعة؟ أجاب بقوله: «مـا المسئول عنها بأعلم من السائل»[1]. لأن «متى الساعة» علمٌ من علوم الغيب، وعلم الغيب لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى.

فمتى تكون الساعة؟ ومـتى تقوم القيامة؟ ﴿علمها عند ربى، لا يُجلِّيهـا لوقتها إلا هو﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ولكن الله تبارك وتعالى رحـمةً منه بعباده جعل للساعـة أمارات وأشراطاً تدلّ على قربها، حتى إذا رآها الناس أفاقوا من غـفلتهم، وانتبهوا من رقدتهم، وأنابوا إلى ربهم قبل أن يُغْلَق باب التوبة، فإن باب التوبة مـفتوح حتى تطلع الشمس من مغربها، فمن تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه.

ولقد ذكرنا فيما مضى أن أمارات الساعة وأشراطها على ثلاثة أقسام:

العلامات الصغرى: وهى التى ظهرت وانتهت.

والعلامات الوسطى: وهى التى ظهرت وما زالت تذاع وتنتشر فى الناس.

---

(١) صحيح: رواه م (٨/٣٦/١)، ت (٢٧٣٨/١١٩/٤)، د (٤٦٧٠/٤٥٩/١٢)، جـه (٦٣/٢٤/١)، نس (٨/٩٧).

والعلامات الكبرى: وهى التى تعقبها الساعة.

وقد تحدثنا عن العلامات الصغرى والوسطى.

فأما العــلامات الكبرى، فمن أهمــها عشر عــلامات، إذا ظهرت الأولى تَلَتْهَا أخواتُها، حــتى ينفخ فى الصور، ويفنى العالم كله، وينفرد المالك بملكه كــما كان قبل أن يخلق خَلْقَه.

ومن هذه العلامات العشر: ظهور المهدى رضى الله عنه.

والمهدى رجل مــن آل بيت النبوة، يوافق اســمُهُ اسمَ رسول الله ﷺ، واسمُ أبيه اسمَ أبى رســولِ الله ﷺ. يخرج فى آخر الزمان، يملأ الأرض عــدلاً وقسطًا، كــما ملئت ظلمًا وجــوراً. ويملك الدنيــا كلهــا كمــا ملكهــا من قبل ذو القــرنين، وسليمان بن داود عليهما السلام.

ولقد تواترت الأحاديث والآثار عن رسول الله ﷺ وصــحبه تواتراً معنوياً فى أخبار المهدى رضى الله عنه، فَوَجَبَ الإيمانُ بها، ووجب الإيمان بخروجه كما أخبر رسول الله ﷺ، فإنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى.

ومن الأحاديث التى ثبتت وصَحَّتْ عن رسول الله ﷺ فى أخــبار المهدى، ما رواه عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم يَبْقَ من الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث فــيه رجلاً منِّى، أو من أهل بيتى، يواطىء اسمُه اسمى، واسمُ أبيه اسمَ أبى، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجوراً»[1].

وعن أم المؤمنين أم سلمــة رضى الله عنهــا قــالت: ســمعت رســول الله ﷺ يقول: «المهدى من عترتى من ولد فاطمة»[2].

وعن أبى سعــيد الخدرى رضى الله عــنه قال: قال رســول الله ﷺ: «المهدى

---

(١) حسن صحيح: رواه د (٤٢٦٢/ ٣٦٩/ ١١).

(٢) صحيح: رواه د (٤٢٦٤/ ٣٧٣/ ١١)، جه (٤٠٨٦/ ١٣٦٨/ ٢) بدون قوله «من عترتى». [المشكاة ٥٤٥٣].

منى، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما ملئت جورًا وظلمًا، ويملك سبع سنين»[١].

وهناك أحاديث أُخَر عن رسول الله ﷺ، وآثار كثيرة عن أصحاب رسول الله وعن التابعين إذا تتبعناها استطعنا أن نكوّن هوية شخصية للمهدى هذه بياناتها:

هوية المهدى الشخصية:

الاسم: محمد بن عبد الله.

اسم الشهرة: المهدى.

كنيته: أبو عبد الله.

لقبه: الجابر، لأنه يجبر قلوب هذه الأمة، ويقضى على المتجبرين والظالمين.

نسبه: من آل بيت النبوة، ومن أولاد الحسن بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

مولده: المدينة المنورة.

مُهَاجَرُه: بيت المقدس.

عمره وقت ظهوره: أربعون عامًا.

مدة مكثه فى الأرض: إن كثر فسبع سنين أو ثمان أو تسع.

طوله: رجل مربوع، ليس بالطويل ولا بالقصير.

لونه: مُشْرَبٌ بحمرة.

صفته: أجلى الجبهة، أقنى الأنف، أدق الحاجبين، كَثُّ اللحية، برّاق الثنايا أفرقها.

خروجه: يخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس، وكثرة الفتن، وظهور الجهل، وتعاطى الربا، وشرب الخمر، وانتشار الزنا.

---

(١) حسن: رواه د (٤٢٦٥/ ٣٧٥/ ١١).

قال العلمـاء: يهاجر محـمد بن عبد الله مـن المدينة إلى مكة من شدة الفتن، خوفًا على نفسـه من القتل، ويخرج سبعة من العلمـاء من أنحاء شتى من الأرض على غـير موعـد، قد بايع كُلَّ عـالم من السبـعة ثلاثُمـائة وبضعـة عشـر رجلاً، فيجتمعون فى مكة على غير مـوعد سابق، كلهم يطلب المهدى، فإذا اجتمعوا عند بيت الله الحـرام، وتعـرفوا علـى ما جـاءوا من أجله، سـألوا الناس عن المهـدى فدلّوهم عليه، فقـالوا له: أنت المهدى؟ فيقول: لا، ثم يهرب إلى المدينة فيـتبعونه حتى إذا أدركـوه عاد إلى مكة، ثم إذا أدركوه هرب إلى المديـنة، يفعل ذلك ثلاث مرات، ثم يجتمعون عليه عند البيت بين المقام والركن، ويقولون: أما ترى ما حلّ بالناس، إثْمُنا عليك إن لم تَمُدَّ يدك نبايعك، فيمـد يده فيبايع مُكْرَهًا عند بيت الله الحرام، بين الركن والمقام[1].

علامات ظهـوره:

يخرج المهدى فـيخرج الناس إليه من فجاج الأرض يقـصدونه فى مكة، حتى إذا ذاع خبره قصده جـيش ليغلبه، فيخسف بهذا الجـيش ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم.

قالت عـائشة رضى الله عنها: يا رسـول الله، كيف يخـسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسـواقهم ومن ليس منهم؟ قال: «يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبـعثون على نياتهم»[2].

ومن أهم علامات ظهوره:

ما أخبر به رسول الله ﷺ أن نهر الفـرات يُحْسَر عن جبلٍ من ذهب، فيتقاتل عليه الناس، حتى يقـتل من كل مائة تسعةٌ وتسعون، ومع ذلك يهـجم الجميع كُلٌّ

(١) الإشاعة لأشراط الساعة. الشريف محمد بن رسول الحسينى.

(٢) صحيح: رواه خ (٢١١٨/٣٣٨/٤).

يقـول: لَعَلِّى أنا الذى أنجو، وقـد نهى رسـول الله ﷺ من حضـره أن يأخـذ منه شيئًا، روى مسلم من حـديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتتل الناس عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم: لعلى أكون أنا الذى أنجو»[١].

وروى الشـيخـان من حديث أبى هريرة قـال: قال رسـول الله ﷺ: «يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب، فمن حضـر فلا يأخذ منه شيئاً»[٢]. فلا يأخذ منه شيئاً فما هى إلا أيام ويخرج المهـدى رضى الله عنه فيحثو المال حثواً، ولا يَعُدّه عدا، ويملأ قلوب أمة محمد غنى، حتى إنه لينادى فى الناس: من كانت له حاجة فى المال فليـأتنا، فلا يقـوم إليه إلا رجلٌ واحـدٌ، فيـقول له المهـدى: اذهب إلى الخازن وقل له: إن المهـدى يأمرك أن تعطينى، فيـقول له الخازن: خذ مـا شئت، فيحثـوا المال فى حجره، حتى إذا ملأ حـجره من المال وأراد أن يقوم به، نظر فلم يَرَ أحدًا قد فعل فعله، فقال فى نفسـه: كنت أجشع أمة محمد ﷺ، فيريد أن يرد المال على الخازن، فيقول له الخازن: نحن لا نقبل شيئًا أعطيناه.

سيرتـــــه:

قال العـلماء: يسيـر المهدى بسنة رسـول الله ﷺ، لا يوقظ نائمًا، يسيـر على السنة، لا يترك سنة إلا أقـامها، ولا بدعة إلا رفعـها، يملك الدنيا كلها كـما ملكها مـن قبلـه ذو القـرنين وسليمان بـن داود عليهمـا السلام، ويؤلّف بين قلوب أمة محـمد ﷺ، حـتى لا يبقى بين اثنين خصـومة، وترسل السـماء عليـهم مدراراً، وتخرج الأرض كنوزها وما اُدُخِرَ فيها، حـتى إن الرجل ليزرع مُدَّ القمح فيخرج له سبـعمائة مُدّ. يجـتمع فى زمان المهـدى الشاة والذئب، ويلعب الصـبيان بالحـيات

(١) صحيح: رواه م (٢٨٩٤/٢٢١٩/٤). [ص.ج ٧٤٢٣].

(٢) متفق عليه: رواه خ (٧١١٩/٧٨/ ١٣)، م (٢٨٩٤ - ٣١ - / ٢٢٢٠/٤) ، د (٤٢٩١/٤٣٦/١١) ، ت(٢٦٩٤/١٠١/٤).

والعقارب لايضرهم ذلك شيئاً، وينتشر الأمن والطمأنينة والسلام، وتنعم الأمة فى زمنه نعمة لم تسمع بمثلها قط.

ولا يزال المهدى فى الأرض ينشر فيها العدل والقسط، وينشر فيها الخير والرحمة، والأمان والبركة، يمكث فى الأرض كما أخبر المصطفى ﷺ سبع سنين أو ثمان أو تسع، تفتح له الدنيا كلها، ويأتيه ملوك الهند مقيدين بالقيود، وتكون غنائمهم حلياً لبيت المقدس ويهاجر المهدى من المدينة إلى بيت المقدس، فيعمر بيت المقدس وتخرب المدينة، وقد صرّحت الأحاديث بهذا، فقد روى أبو داود من حديث معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «عمرانُ بيتِ المقدس خرابُ يثرب، وخرابُ يثرب خروجُ الملحمة، وخروجُ الملحمةِ فَتْحُ قسطنطينية، وفتحُ قسطنطينية خروجُ الدجال»[1].

ولا يزال الناس تحت راية المهدى آمنين مطمئنين، حتى يخرج الدجال فيأوى المهدى وأتباعُه إلى بيت المقدس ويعصمهم اللهُ من فتنة الدجال، ثم ينزل عيسى عليه السلام من السماء، فيلحَق بالمهدى فيدركه وقد أقيمت الصلاة، فإذا رأى المهديُّ عيسى أذِنَ له أن يصلى بالناس، فيقول عيسى: لا، أنت الإمام، إن هذه الأمة بعضها أمراء على بعض، تكرمة الله لهذه الأمة، ثم يَقتل عيسى ابنُ مريم الدجالَ، ويعيش المهدى مع عيسى زمناً، ثم يقبض الله المهدىَّ، فيقوم على تجهيزه عيسى ابنُ مريم، ويصلّى عليه ويدفنه.

وبعد ذلك تتابع العلامات الباقيات التى سنعرفها إن شاء الله.

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يثبتنا على الإيمان ويختم لنا به.

* * *

---

(١) حسن: رواه د (٤٢٧٣/ ٤٠٠/ ١١). [المشكاة ٥٤٢٤].

٢ - خروج المسيح الدجال

﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم، عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ، حريص عليكم، بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ [التوبة: ١٢٨].

ما ترك رسولُ الله ﷺ خيراً إلا وأرشد الأمة إليه، وما ترك شراً إلا وحذّر الأمة منه، وذلك لحرصه على سعادتهم وفلاحهم ونجاحهم وفوزهم فى الدنيا والآخرة، فاللهم أجزه عن الإسلام والمسلمين خير ما جزيت نبياً عن أمته.

ولقد عَلِم رسولُ الله ﷺ شرَّ المسيح الدجال وعِظَمَ فتنته، فحذَّر أمته منه، ووصفه لهم وصفاً دقيقاً حتى لا يخفى على مؤمن، ولا يُفْتَن به مؤمن بإذن الله عزّ وجلّ، وعلَّمنا ﷺ أن نستعيذ بربّنا عزّ وجلّ فى كل صلاة، عقب التشهد، من فتنة المسيح الدجال، فكان ﷺ فى صلاته يستعيذ بربّه من فتنة الدجال[١]، وأمر أمته كذلك إذا صلَّت أن تستعيذ بربّها من فتنة هذا الكذاب الضالّ المضل، فجاء عنه ﷺ فى الحديث الصحيح أنه قال: «إذا تشهّد أحدكم فليستعذ بالله من أربع: من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المسيح الدجال، ومن فتنة المحيا والممات»[٢].

وبتتبعنا للأحاديث الصحيحة التى رواها الشيخان وغيرهما من أصحاب السنن نستطيع أن نصف الدجال بما وصفه به رسولُ الله ﷺ خشية أن ندركه، ونعوذ بالله من فتنته.

---

(١) صحيح: رواه خ (١٣٧٧/ ٢٤١/ ٣).

(٢) صحيح: رواه م (٥٨٨/ ٤١٢/ ١)، (٩٦٨/ ٢٧٣/ ٣)، جه (٩٠٩/ ٢٩٤/ ١)، نس (٥٨/ ٣). [صفة الصلاة ص ١٦، الإرواء ٣٥٠].

أوصافـه:

إنه شاب، أحـمر الوجـه، جسيم ـ أى ممـتلىء الجثة ـ، رأسه كـأنها أغـصان شجـرة، يعنى أن شعره كـثير متـفرق قائم، أعـور العينين، العين اليمنى ممسـوحة صافية قد ذهب نورها، والعين اليسرى ناتئة بارزة ترى رؤيةً خفيفة، وعليهـا ظفرة ـ وهى جلدة أو لحمة تخرج فى العين ـ، قصير ليس بالطويل.

من أين يخرج:

يخرج الدجال من خـراسان أو إصبهان، ويتـبعه من يهودها سـبعون ألفًا[١]، تطوى له الأرض طيًا، حتى أن رسـول الله ﷺ سُئِلَ عن سرعـته التى يسيـر بها، فقال: «كالغيث استدبرتْه الريحُ»[٢]، أى كالغيث تسوقه الرياح بسرعة شديدة.

مُكْثُه فى الأرض:

يقـيم الدجال بـعد ظهـوره أربعين يومـاً، وهى مدة قـليلة، ومع ذلك يطوف خلالها الأرض كلها إلا مكة والمدينة، على أبوابهمـا ملائكة بالسيوف مُسَلَّطة، فلا يمكنه دخولهما[٣].

سُئِلَ ﷺ عن مكثـة فى الأرض؟ فـقال: «أربعـون يومـاً، يوم كـسنة، ويوم كشهـر، ويوم كجمعة، وسائر أيامـه كبقية أيامكم». قالوا: يا رسـول الله، فاليوم الذى هو كالسنة أيكفينا فيه صلاةُ يومٍ واحد؟ فقال ﷺ: «لا، اقدروا له قدره»[٤]. يعنى انظروا كـم يكون من الوقت بين الفـجـر والظهـر، وبين الظهـر والعـصـر، وهكذا، ثم صلوا على حسب هذا التقدير، حتى ينتهى ذلك اليوم.

---

(١) صحيح: رواه م (٢٩٤٤/ ٢٢٦٦/ ٤).

(٢) صحيح: رواه م (٢٩٣٧/ ٢٢٥٠/ ٤).

(٣) صحيح: رواه م (٢٩٤٢/ ٢٢٦١ - ٢٢٦٤/ ٤).

(٤) صحيح: رواه م (٢٩٣٧/ ٢٢٥٠/ ٤)، د (٤٢٩٩/ ٤٤٥/ ١١).

لِمَ سُمِّيَ المسيح الدجال؟:

سُمِّيَ المسيح لأن عينه اليمنى ممسوحة، وهو مسيح الضلالة، وعيسى ابنُ مريم مسيحُ الهدى.

سُمّيَ الدجّال مسيحًا لأن عينه ممسوحة، وسمِّى ابن مريم مسيحًا لأنه كان يمسح المريض فيبرأ بإذن الله.

وسمِّيَ الدجال دجّالاً لكثرة كذبه، والدَّجَلُ فى الأصل: هو التغطية، وسُمِّيَ كل كذاب دجّالاً لأنه يغطى الحق بالباطل.

فتنتـــه:

هذا الدجال فتنته عظيمة جداً، حتى إنه يخرج ومعه ماء ونار، فما يراه الناسُ ماءً فهو نار تحرق، وما يرونه ناراً فهو ماء بارد، ولذلك وصّى رسول الله ﷺ من أدرك الدجال أن يطأطىء رأسه ويُغْمِض عينيه، ثم يشرب من النهر الذى يظنه ناراً، فإنما هو ماء عذب بارد[1].

يمرّ الدجال بالقوم فيدعوهم إلى الإيمان بأنه ربّهم فيؤمنون به، فينادى على السماء: أمطرى فتمطر، وينادى على الأرض: أخرجى نباتك فتُخْرِج نباتها، فتعود سارحة القوم أشبع ما كانت وأملأ ضروعاً، وأسمن ما تكون.

ثم يمرّ بآخرين فيدعوهم إلى الإيمان بأنه ربّهم فيكفرون به، ويردون دعوته، لما يرونه من العجز الحسى، والنقص الحسّى فى خِلْقته، إن ربكم ليس بأعور، وإن المسيح الدجال أعور، إن المسيح الدجال فى الأرض يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، وربّنا الرحمن على العرش استوى لا يأكل ولا يشرب.

إن المسيح الدجال يُرَى بين الناس، وربّنا لا يُرَى فى الدنيا، حتى أن كليمه موسى لما سأله أن يراه ﴿قال لن ترانى﴾. ولما عُرِجَ برسول الله ﷺ كلّمه ربّه من

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٣٤٥٠/ ٤٩٤/٦)، م (٢٩٣٤/ ٢٩٣٥/ ٢٢٥٠/ ٤)، د (٤٢٩٣/٤٣٨/ ١١).

وراء حجاب، ولم يَرَ النبىُّ ﷺ ربّه ليلة المعراج، تقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: «ثلاثٌ من حـدّث بهنّ فقد كذب: مـن حدثك أن محمـداً قد رأى ربه ليلة المعراج فقد كذب، ومن حدثك أن محمداً يعلم الغيب فقد كذب، ومن حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أُمِرَ به فقد كذب»(١).

ولكن يوم القيـامة يرى أهلُ الجنة ربَّهم سبحانـه، قال تعالى: ﴿**وجوهٌ يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة**﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

يمرّ الدجال على قوم فيدعوهم إلى الإيمان به فيـستجيبون له، ويمر على آخرين فيدعـوهم فيكفرون به ويردون دعوته، حتى إذا فـارقهم أصبحوا وقـد فقدوا كل خير كان بين أيديهم، جفّت المياه، وهلك الحرث والنسل.

ويمر الدجـال بالخربة فـينادى عليهـا أن تُخْرِج كنوزها فتـخرج كنوزهـا تتبـعه كيعاسيب النحل.

ثم يأتى الدجال برجل شـاب ممتلىء الجسم، فيقـول: أرأيتم إن قتلتُ هذا ثم أحييتُه أتؤمنون بى فيقول أتباعه: نعم، فـيضربه بالسيف فيقطعه قطعتين، ثم يمشى بينهما، ثم ينادى عليه فيقوم حـيًا، فيقول له: أتؤمن بى؟ فيقول: والله ما ازددتُ فيك إلا بصيـرةً. فيريد أن يذبحه مرة ثانية فـلا يُمكَّن من ذلك، حتى أنه جاء فى الحديث: «فيجعل الله ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسًا، فلا يستطيع إليه سبيلاً»(٢).

ثم يتـوجه الدجـال شطر المدينة فـيـجدها قـد حُرِسَت بالملائكة، وقـد رَفَعَت الملائكة سيـوفها وشهـرتها فى وجهه، فـيقف على أدنى سبخـة من المدينة ويقول لأتباعه: أترون هذا القصر الأبيض؟ إنه مسجد محمد.

فيخرج إليه رجل من أهل المدينة، هو أفضل الناس يومئذ، فيقول له: أنت المسيح

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٤٨٥٥/٨/٦٠٦)، م (١٧٧/١٥٩/١)، ت (٣٠٦٣/٥/٣٢٨/٤).

(٢) صحيح: رواه م (٢٩٣٨/ ٢٢٥٦ و ٢٢٥٧/٤).

الدجال، فيقول: أرأيتَ إن قتلتُك ثم بعثتُك أتؤمن بى؟ فيقتله ثم يحييه، ثم يقول: ما تقول؟ فيقول: أنت المسيح الدجال الذى حذَّرنا منك رسول الله ﷺ[1].

ثم تصرف الملائكة وجه الدجال إلى بيت المقدس، فيعود إلى هناك، والمهدىُّ رضى الله عنه مع أتباعه الذين عصمهم الله من فتنة الدجال، حتى إذا وطئ الدجالُ أرضَ بيت المقدس وخاف أهلُها منه، إذا بالمسيح عيسى بن مريم ينزل من السماء عند المنارة البيضاء شرقىّ دمشق، ينزل بين ملكين، واضعًا كفيه على أجنحتهما، يقطر رأسه ماء[2]، فيتوجه عيسى عليه السلام من دمشق إلى بيت المقدس، فيدرك المهدى وقد أقيمت الصلاة، فيتأخر المهدى ليصلى عيسى بالناس، فيأبى عيسى، ويقول: لا، لك أُقيمَت، إن هذه الأمة بعضها على بعض أمراء، تكرمة الله لهذه الأمة[3]، فيصلى عيسى خلف المهدى، ثم يتوجه عيسى إلى الدجال فإذا رآه ذاب كما يذوب الملح فى الماء، فيقول عيسى: إن لى فيك ضربة لن تفوتنى، فيدرك عيسى ابنُ مريم المسيح الدجال عند باب لُدّ[4] فى فلسطين فيقتله هناك ثم يتتبع المسلمون أنصارَ الدجال من اليهود، فيختبئون خلف الشجر والحجر، فينادى الشجر والحجر: يا مسلم هذا يهودىّ ورائى، تعال فخذه فاقتله. قال رسول الله ﷺ: «لن تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، فيختبىء أحدهم خلف الحجر والشجر، فيُنْطِقُ اللهُ الحجرَ والشجرَ فيقول: يا مسلم هذا يهودى ورائى، تعال فخذه فاقتله، إلا شجرة الغرقد فإنها شجرة اليهود»[5].

إن فتنة الدجال فتنة عظيمة، وإن خطر الدجال عظيم جداً، ولذا علَّمَنَا رسول الله ﷺ أن نستعيذ بالله فى كل صلاة من فتنة الدجال.

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٧١٣٢/ ١٠١/ ١٣)، م (٢٩٣٨/ ٢٢٥٦ و ٢٢٥٧/ ٤).

(٢) صحيح: رواه م (٢٩٣٧/ ٢٢٥٠/ ٤)، ت (٢٣٤١/ ٣٤٦/ ٣).

(٣) صحيح: رواه م (١٥٦/ ١٣٧/ ١).

(٤) صحيح: رواه م (٢٩٣٧/ ٢٢٥٠/ ٤)، ت (٢٣٤١/ ٣٤٦/ ٣)، د (٤٢٩٩/ ٤٤٥/ ١١).

(٥) صحيح: رواه م (٢٩٢٢/ ٢٢٣٩/ ٤).

وأرشدنا ﷺ إلى ما يعصمنا من فتنة هذا الدجال، فقال رسول الله ﷺ: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال»[1]، إنه بشر، يأكل ويشرب، وينام، ويتغوَّط ويبول، ويتزوج لكن لا يولد له. إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤها كل مؤمن يعرف القراءة أوْ لا، فكيف يخفى أمره على مؤمن بعد هذا البيان؟

والله تبارك وتعالى خليفةُ كلِّ مؤمن على نفسه، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن يخرج وأنا فيكم فسأكفيكموه، وإن يخرج ولست فيكم فالله خليفتي على كل مسلم، وكل امرىء حجيجُ نفسه»[2].

*** ومما يتعلق بموضوع الدجال موضوع الولاية والكرامة:**

والولاية نوعان: ولاية للرحمن، وولاية للشيطان.

وهناك كرامات يُظْهِرُها الله تبارك وتعالى على أيدى أوليائه الصالحين الذين عَرَّفهم فى كتابه بقوله: ﴿**ألا إن أولياء اللَّه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

فكل مؤمن تقىّ فهو لله ولىّ، كل مؤمن يقوم بالواجبات، ويترك المحرمات، ويحرص على النوافل والسنن، واتباع محمد ﷺ فهو ولىّ الله، والله وليُّه ﴿**اللَّه ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور**﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقد يُظْهِر الله تبارك وتعالى على أيدى أوليائه شيئاً خارقاً للعادة، إظهاراً لكرامتهم عليه سبحانه كما كان يفعل بمريم ابنة عمران: ﴿**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنّى لك هذا؟ قالت: هو من عند اللَّه، إن اللَّه يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ [آل عمران: ٣٧].

---

(١) صحيح: رواه م (٨٠٩/ ٥٥٥/ ١)، د (٤٣٠١/ ٤٥١/ ١١). [الصحيحة: ٥٨٢].

(٢) صحيح: رواه م (٢٩٣٧/ ٢٢٥٠/ ٤)، د (٤٢٩٩/ ٤٤٥/ ١١)، ت (٢٣٤١/ ٤٣٦/ ٣).

فكرامات الأولياء ـ وهم المؤمنون المتقون ـ ثابتة بالكتاب والسنة، ولا يجوز إنكارها. ولكن الوليّ الحقَّ، الصادقَ فى ولايته يتستّر بما يظهره الله على يديه حياءً من الله تعالى، لا يباهى، ولا يفاخر، ولا يُرَائى، ولا يقول للناس: تعالوا أريكم معجزة وكرامة تظهر على يدى، تعالوا أريكم كيف أننى من أولياء الله. الولى الصادق لا يفعل هذا أبدا، لأن فى هذا القول تزكيةً للنفس، والمؤمن لا يزكىّ نفسه، لأن الله تعالى نهانا عن ذلك فقال: ﴿**فلا تزكوا أنفسكم، هو أعلم بمن اتقى**﴾ [النجم: ٣٢].

وهناك رجال إذا خَبَرْتَ أحوالَهم وجدتَهم قد ضيّعوا الفرائضَ وارتكبوا المحرَّمات، وابتعدوا عن سنن المصطفى ﷺ، ومع ذلك قد يظهر على أيديهم خوارق للعادات، بل قد تظهر على أيديهم معجزات، كما هو حال الدجال مسيح الضلالة، إذ ينادى على السماء أن تمطر فتمطر، وينادى على الأرض فتخرج نباتها، فهل هذه معجزات وكرامات؟ كيف وقد كتب الله بين عينيه «كافر».

إذن: خوارق العادات كما تظهر على يد أولياء الله الصالحين قد تظهر على يد نفر بعيدين كل البعد عن طريق الرحمن، سالكين لطريق الشيطان ﴿**وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغىّ يتخذوه سبيلا**﴾ [الأعراف: ١٤٦]. فما القول فى هؤلاء، وفيما يظهر على أيديهم؟ القول: إنها فتنة يبتلى الله بها عباده ﴿**وما يضل به إلا الفاسقين**﴾ [البقرة: ٢٦].

رُوِىَ عن الليث بن سعد أنه قال: إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة.

فبلغ ذلك الشافعى فقال: لقد قصّر الليث: بل إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ويطير فى الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة(١).

---

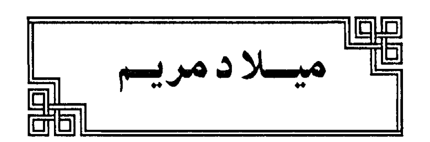
(١) شرح الطحاوية (٥٧٣).

فـعلينا إذا رأينا أمـرًا من خوارق العـادات يظهـر على أيدى بعض الناس، أن نعرض أحـوالهم على الكتاب والسّنة، فـإن كانوا صالحين، مـتمـسكين بكتاب الله وسنّة رسـول الله ﷺ، ولا يباهون ولا يفـاخرون ولا يـدعون الناس للاجـتمـاع ليظهروا لهم من كراماتهم فهى كرامة، وكرامات الأولياء حق.

وإذا رأيت الرجل تاركًا للسُّنَّة، تاركًا للجمـاعة، مُقَصِّرًا فيمـا أمره به ربُّه، ثم رأيته تظهر على يديه خوارق العادات فاعلم أن ذلك من عمل الشيطان.

إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

* * *



ميلاد مريم

تحدثنا فيما مضى عن علامتين من علامات الساعة الكبرى: ظهور المهدى رضى الله عنه، وخروج الدجّال عليه لعنة الله، وأشرنا إلى العلامة الثالثة وهى نزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء فيقتل الدجال، ويقاتل المسلمون معه اليهود حتى إن أحدهم يختبىء وراء الحجر والشجر، فيُنْطِق الله الحجر والشجر فيقول: يا مسلم هذا يهودى ورائى، تعال فخذه فاقتله.

وقبل أن نتكلم عن نزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء ينبغى أن نتعرّض أولاً إلى ميلاده ونسبه، والملابسات التى أحاطت بميلاده، لنبين حقيقته، وأنه بشر مخلوق، وعبد من عباد الله، حتى يظهر لمن وقعوا فى الشرك والكفر بسببه، أنه ليس إلهًا، ولا ابن إله، وليست أمُّه أيضًا إلهًا. إنما هو وأمه من جملة البشر، يأكلون ويشربون وتعترضهم العوارض التى تعترض البشر: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قد خَلَت من قَبله الرُسُل، وأمُّه صدّيقةٌ كانا يأكلان الطعام، انظُر كيف نبيِّن لهم الآيات، ثم انظُر أنَّى يُؤفَكُون﴾ [المائدة: ٧٥].

قال تعالى: ﴿إن اللَّه اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذُريةً بَعضُهَا من بعض واللَّهُ سميعٌ عليمٌ * إذ قالت امرأة عمران رب إنى نَذَرتُ لك ما فى بطنى مُحَرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم * فلما وَضَعَتها قالت رب إنى وَضَعَتهَا أنثى واللَّه أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أُعيذُها بك وذُرِّيَتَهَا من الشيطان الرجيم * فَتَقَبَّلها ربُها بقبول حسن وأنبتها نباتًا حسنًا وكَفَّلَهَا زكريا كلما دخل عليها زكريا المحرابَ وَجَدَ عندها رزقًا

قال يا مريم إنى لك هذا قالت هو من عند اللَّه إن اللَّه يرزُقُ من يشاء بغير حساب* هُنَالكَ دعا زكـريا ربَّهُ قال رب هب لى من لدنك ذريةً طيـبةً إنك سمـيع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن اللَّه يُبَشِّرُكَ بيحيى مُصَدِّقًا بكلمة من اللَّه وسيِّداً وحَصُوراً ونبـيًا من الصالحين * قال رب أنى يكون لى غـلامٌ وقد بَلَغَنِىَ الكِبَرُ وامرأتى عاقر قال كذلك اللَّه يفعل ما يشاء * قال رب اجعل لى آيةً قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمـزًا واذكـر ربـك كثـيراً وسبِّـح بالعَشِـىِّ والإبكار﴾ [آل عمران: ٣٣ - ٤١].

امرأة عمران هى أم مريم وجَدّة عيسى بن مريم، يقال: إن امرأة عمران كانت لا تلد، فنظرت ذات يوم طائـراً على شجـرة يقـوم على فرخـه الصـغيـر، يُطْعِمُه ويسقيه ويرعـاه، فتحرك فى قلبها حبُّ الولد، والرغبـة فى أن تكون لها ذرية طيبة صالحـة، فتـوجَّهَتْ إلى الله بالدُّعاء أن يرزقـها ذرية طيـبة، واسـتجـاب الله لها، وحملت بعد الدعوة المباركة التى خرجت من قلب طاهر مخلص، ممتلىء بحب الله والإيمان بأنه على كل شىء قدير.

ولما ظهـر الحـمل وتأكـدت منه توجَّهَت إلى الله تبـارك وتعـالى: **﴿ربِّ إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم﴾**.

وعند الوضع كانت المفـاجأة،حيث كان المولود أنثى، وهنا أخذ امـرأةَ عمران الأسفُ والحزن، وخَشِيَتْ أن لا يُقْبَل مولودُها خادمـاً للبـيت المقدَّس كما نذرت، إذ أن العادة قد جـرت أنه لا يقبل لخدمة بيت المقـدس إلا الذكور، فلما وضعـتها توجهت إلى الله تبارك وتعـالى كأنها تعتذر إلى ربّهـا وتتأسف إذ كان المولود أنثى، وكانـت تطمع أن يكون ذكراً، فـإن الذكر غـالباً أقـوى من الأنثى وأشد، والـذكر يقوى على الأعمال التى تضعف النساء عن القيام بها: **﴿فلما وضعتْها قالت: ربِّ إنى وضعـتُها أنثى واللَّه أعلم بمـا وضعت﴾** إن قولـها: **(إنى وضعتـها أنثى)** ليس

إعلاماً للّه بما وضعت، كيف؟ وهو الخالق ﴿**ألا يعلم من خَلَقَ وهو اللطيف الخبير**﴾ [الملك: ٢٤]، ولكن هذه العبارة خرجت من امرأة عمران أم مريم وجَدّة عيسى، خرجت هذه العبارة منها على سبيل الاعتذار لله تبارك وتعالى، وكأنها تقول: يارب: إني كنت نذرت لك ما في بطني، راجيةً أن يكون ذكراً، يقوى على خدمة بيتك ويشتدّ في طاعتك، ولكنك الآن يارب ترى أني: ﴿**وضعتُها أنثى، واللّه أعلم بما وضَعَتْ، وليس الذكر كالأنثى، وإني سميتها مريم، وإني أُعيذُها بك وذريتَهَا من الشيطان الرجيم**﴾. قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا مسّه الشيطان عند ولادته فيستهلّ صارخًا، إلا مريم وابنها»، قال أبو هريرة راوي الحديث: اقرءوا إن شئتم قول الله: ﴿**وإني أُعيذُها بك وذريتها من الشيطان الرجيم**﴾[1].

وكأن الله قد رأى في قلب امرأة عمران الذلّ والانكسار، والأسف على أن مولودها كان أنثى ولم يكن ذكراً، وكانت ترجو أن يكون ذكراً ليجتهد في خدمة بيت الله، فجبر الله كسرَها، وتقبّل منها مولودها، وأنبته نباتًا حسنًا، وكان في مريم الخير الكثير، وكانت أفضل من رجال كثيرين ﴿**فتقبلها ربها بقبول حَسَنٍ، وأنبتها نباتًا حسنًا**﴾. قال رسول الله ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[2].

لما وضعت امرأةُ عمران مريمَ أخذتها في خرقة، وذهبت بها إلى بيت المقدس، وقدَّمتها لسدنة البيت (**فتنازعوا أمرهم بينهم**) واختلفوا من يكفل مريم ومن يقوم على خدمتها، إن مريم ابنةُ عمرانُ، وعمران كبير القوم وسيدهم وإمامهم، وهاهي ابنته تقدَّم إلى بيت الله، فمن يحظى بشرف خدمتها؟ فلما اختلفوا اتفقوا على أن

---

(١) متفق عليه: رواه م (٢٣٦٦/١٨٣٨/ ٤)، خ (٣٤٣١/ ٤٦٩/ ٦).

(٢) متفق عليه: رواه خ (٣٤٣٣/ ٤٧١/ ٦)، م (٣٤٣١/١٨٨٦/ ٤)، ت (١٨٩٤/١٧٩/ ٣)، جه (٣٢٨٠/ ١٠٩١/ ٢).

يقترعـوا، وكانت قرعتهـم على النحو التالى: أن يلقوا أقـلامهم فى نهر الأردن، فمن ذهبت المياه بقلمه فليس له فى مريم نصيب، ومن ثبت قلمُه على سطح الماء، فهذا الذى يكْفل مريم، فلما ألقوا أقلامَهم ذهبت كلّها إلا قلم زكريا عليه السلام، فإنه قام على سطح الماء يشقّه كالسفـينة الجارية، فكانت مريم من نصيبه، وهذا هو قول الله لرسوله ﷺ: **﴿وما كنت لديهم إذ يُلْقُون أقلامـهم أيُّهم يكفل مريم، وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾** (آل عمران: ٤٤).

﴿فتقبلها ربُّها بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً، وكفلها زكريا﴾. ومن رعاية الله بالولد، وفضـله عليه أن يجعله فـى كفالة رجل صـالح، يقوم على تربيـته، وأى صلاح بعد صلاح زكريا النبى.

إن مريم نشـأت فى بيت المقدس بين عـباد الله الصـالحين والزاهدين، والذى يقوم على خدمـتها ورعايتهـا وتربيتها نبىُّ الله زكريا علـيه السلام، فكيف لا تكون عابدة؟ وكيف لا تكون زاهدة؟ وكيف لا تكون صالحة؟

ومع كـفالة زكـريا لمريم فإن الله تـعالى لم يُهْمِلْهـا ولم يُضَيِّعْها، بل كـان الله يتولاها بعنايتـه ورعايته ويأتيـها برزق من عنده، فكانت **﴿كلما دَخَلَ عليـها زكريا المحرابَ وَجَدَ عندها رزقا﴾** ولا أحد يدخل على مريم غير زكـريا، فمن أين يأتيها هذا الطعام؟! ومن أين لها هذه الفـاكهة؟! إنه يرى شيئـاً عجاباً، إنه يرى عند هذه الفتاة الصغـيرة فى داخل بيت الله، يرى عندها فاكهة الصيف فى الشتـاء، وفاكهة الشتـاء فى الصيف، وهنا يجـد زكريا نفسـه مضطرًا للسـؤال، ليعرف سـرّ ما يرى **﴿قـال يا مريم أنَّى لك هذا؟ قـالت: هو من عند اللَّه، إن اللَّه يرزق من يشـاء بغيـر حساب﴾**.

لقد قلنا إن كرامات الأولياء ثابتة، ولكن الأولياء الصادقين لا يفتخرون بما يُظْهِر الله على أيديهم من الكرامات، ولا يتبـاهون، ولا يدعون الناس إلى رؤية ما يظهر

على أيديـهم من كـرامـات، وهذا هـو حـال مـريم، إن الرزقَ عندهـا منذُ زمن، والكرامةَ بـين يديها منذُ زمن، فلم تقل شـيئـاً، ولـم تَدَّعِ الولاية، ولـم تفتـخر بما عندها من الكرامات، حـتى إنه لما سألها زكـريا ردَّت الفضل إلى صاحـبه، وردت النعمة إلى مُسْدِيها **﴿يا مريم أنَّى لك هذا؟﴾** قالت بكل تواضع وبكل خشوع **﴿هو من عند اللَّه، إن اللَّه يرزق من يشاء بغير حساب﴾**.

﴿هنالك دعا زكـريا ربّه، قال: ربِّ هَبْ لى من لدنك ذرية طيـبة، إنك سـميع الدعاء﴾.

إن زكريا عليـه السلام عـاش حيناً من الدهر لا يولد له، حـتى اشتـعل رأسه شيبًا، وبلغ من الكبر عتيًّا، كانت امرأته عاقرًا، فلما سمع رَدَّ مريم **﴿إن اللَّه يرزق من يشاء بغير حساب﴾** تحرك فى قلبه حُبُّ الولد، فقال فى نفسه ما دام الله يرزق من يشاء بغير حساب، وها هى مريم يأتيهـا رزقها وهى فى المسجد بدون كسب منها ولا سبب، فالله قـادر على أن يرزق زكريا الولد وإن كانت امرأته عـاقراً، وقد بلغ هو من الكبر عتيـا، فتوجّه إلى الله بالدعاء: **﴿ربِّ هب لى من لدنك ذرية طيـبة، إنك سميع الدعاء﴾**. دعوة خرجت من قلب مخلص، ومن قلب ممتلىء بالإيمان، دعوة خرجت من قلب موقن أن الله علـى كل شىء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً، فمـا أن خرجت هذه الكلمات من قلب زكريا حتى اسـتجاب الله له: **﴿وزكـريا إذ نادى ربّه: ربّ لا تذرنى فـردًا وأنت خيـر الوارثين * فـاستـجـبنا له، ووهبنا له يحـيـى، وأصلَحنا له زوجـه﴾**، ما السـبب؟ **﴿إنهم كـانوا يسارعـون فى الخيرات، ويدعوننا رَغَباً ورَهَباً، وكانوا لنا خاشعين﴾**[الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

ما هى إلا لحظات بعد أن دعا زكريا ربّه، ثم قام فى محرابه يصلى، ما هى إلا لحظات حتى كانت المفاجأة: الملائكة تنادى زكريا: **﴿إن اللَّه يبشّرك بيحيى، مُصَدِّقًا بكلمة من اللَّه، وسيدًا، وحَصُورًا، ونبيّاً من الصالحين﴾**.

وأخذ زكريـا العجَبُ، أيعقل بعد هذا العـمر المديد، أن يكون لى ولد ﴿**قال: رب أنَّى يكون لى غـلام، وقـد بلغنى الكبـر ، وامـرأتى عـاقـر؟**﴾ فكان الجـواب: ﴿**كذلك اللَّه يفعل ما يشاء**﴾.

وإذا كانت العادة قد جرت أن المسبـبات لا تكون إلا بأسباب، فإن الله إذا شاء أوجد المسببات بدون أسباب ﴿**كذلك اللَّه يفعل ما يشاء**﴾.

وما زال زكريا كأنه فى حلم، فأراد أن يتثبت ليطمئن قلبه ﴿**قال رب اجعل لى آية**﴾ اطمئن بها، وأزداد إيماناً بما بشَّرتنى به ﴿**قال آيَتُكَ ألا تُكلِّمَ الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً، واذكر ربك كثـيراً، وسبح بالعَشِىّ والإبكار**﴾. كانت الآية أن زكريا إذا أراد أن يكلم الناس أمسك اللهُ لسانَه فلا يقـوى على الكلام، وإذا أراد أن يسبّح بحمد الله انطلق لسانه بكل فـصاحة، فأى آية أعظم من هذه الآية، اللسـان هو اللسان، وليس أخـرس عـلى الإطلاق، وإنما مُنعَ مـن نوع من الكلام، إذا أراد أن يـكلم الناس أُمْسِكَ لسانه، فلا يستطيع الكلام إلا رمزاً، إما بالعينيْن، وإما بالإشارة باليد ونحو ذلك، وأما إذا أراد أن يسبّح بحمد الله انطلق لسانه، فإذا كان ذلك يا زكريا فاعلم أن الله قادر على أن يهـبك الولد وامرأتك عاقرٌ وقد بلغت من الكبـر عتياً، لأن الله يفعل ما يشاء.

ربنا هب لنا من أزواجنا وذرِّياتنا قرَّة أعين، واجعلنا للمتقين إماما.

* * *

ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام

هكذا عرفنا كيف كان ميلاد مريم أم عيسى عليه السلام، ورأينا كيف أن مريم نشأت فى رحاب بيت الله بيت المقدس، عابدة، زاهدة، قانتة، قائمة بأمر ربها الذى أوحاه إليها على ألسنة الملائكة: ﴿**يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين**﴾ فقامت رضى الله عنها بهذا الأمر خير قيام، ووفّت به، وبذلت فيه كل ما تستطيع. عرفنا كيف كانت ولادة مريم، فكيف كانت ولادة عيسى؟

قال الله تعالى: ﴿**واذكر فى الكتاب مريَمَ إذ انتَبَذَت من أهلهَا مكاناً شرقياً * فاتَّخذَت من دُونهم حجابًا فأرسلنا إليها رُوحَنا فتَمثَّلَ لها بشراً سويًا * قالت إنى أعوذُ بالرحمنِ منكَ إن كُنتَ تقيًا * قال إنما أنا رسول ربِّك لأهَبَ لك غلامًا زكياً * قالت أنى يكون لى غلامٌ ولم يمَسَسنى بشرٌ ولم أكُ بغيًا * قال كذلك قال ربُّك هو علىَّ هيِّن ولنَجعلَهُ آيةً للناس ورحمةً منا وكان أمراً مقضيا * فَحَمَلَتهُ فانتَبذَت به مكانًا قصيًا * فَأَجَاءَهَا المخَاضُ إلى جذعِ النخلة قالت يا ليتنى متُّ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا * فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعَلَ ربُّك تَحتَك سَرِيًّا * وهزى إليك بجذع النخلة تُسَاقط عليك رطبًا جنيًا * فكُلى واشربى وقَرِّى عينًا فإما تَرَينَّ من البشر أحدًا فقولى إنى نَذَرتُ للرحمن صومًا فلن أُكَلم اليوم إنسيا * فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئًا فريا * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أُمُّك بَغيًا * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا * قال إنى عبد اللَّه أتانى الكتابَ وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركًا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دُمت حيًا * وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا * والسلام عَلَىَّ يوم**

ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا * ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان للَّه أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون * وإن اللَّه ربى وربكُم فاعبُدوهُ هذا صراطٌ مستقيمٌ * فاختلف الأحزابُ من بينهم فَويلٌ للذين كفروا من مَشهدِ يومٍ عظيم﴾ [مريم: ١٦ - ٣٧].

تلك هى قصة ميلاد عيسى، وقد قسمت إلى ثلاثة مشاهد:

المشهد الأول: اقتحام جبريل على مريم خلوتها.

المشهد الثانى: ولادة عيسى.

المشهد الثالث: مريم بين قومها وعيسى بين يديها تحمله.

إن مريم نشأت فى بيت المقدس - كما علمنا - متفرغة لعبادة الله، متفرغة لمناجاة الله، متفرغة لما يحبّه الله تعالى ويرضاه. وذات يوم خرجت مريم من المسجد واتجهت إلى الجهة الشرقية منه لحاجة من الحوائج اضطرتها للخروج، وهناك ضربت بينها وبين قومها حجابًا حتى لا يراها أحد، ولا ينظر إليها أجنبى، وبينما هى فى خلوتها آمنة مطمئنة، إذا بها يروعها قيامُ رجلٍ أمامها، فدُهِشَتْ لذلك، وأخذتها الحيرةُ والشكوك، مَنْ هذا؟ ومِنْ أين جاء؟ ولماذا جاء؟ ومريمُ امرأةٌ من النساء، والذى اقتحم عليها خلوتَها - كما تراه - رجلٌ من الرجال، فماذا يريد هذا الرجل، وهل اقتحم عليها خلوتَها إلا لرغبته فيها؟ وحينذاك بادرت باللجوء إلى الله واستعاذت بالله، وذَكّرَتْ هذا الذى أمامها بالله، إن كان فى قلبه خشيةٌ وخوفٌ من الله فليبتعد عنها ولا يمسّها بسوء، فإن الله شديد العقاب. **﴿قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا ﴾**. استعاذت بالله، ولجأت إلى الله، وهذا هو الواجب على كل مسلم، إذا سأل أن يسأل الله، وإذا استعان أن يستعين بالله، وإذا استعاذ فليستعذ بالله فإنه لا ملجأ ولا منجى إلا إلى الله **﴿قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا ﴾**. وهنا يكشف هذا الذى أمامها عن هويته،

ويُفْصِح عن حقيقته، ويقول لها: لِيذهبَ روعُها، ويسكنَ قلبُها: ﴿**قال إنما أنا رسول ربك**﴾ لست بشـراً وإن كنت ترينني فى صـورة بشـر ﴿**قال إنما أنـا رسول ربك**﴾ والذى جاء بى ﴿**لأهب لك غلامًا زكـياً**﴾. وهنا تزداد الحيـرة، وتزداد الشكوك، ويزداد القلق، فلعل هذا الرجل يريد أن يحـتال على مريم، إنه يقـول لها أريد أن أهب لك غـلامًا، والغلام لا يكـون إلا بعد جـماع، فـلعل هذا الرجل يكذب فى قوله، ومـا هى إلا حيلة يحتـال بها ليتـمكن من مريم، فقـالت مُنْكِرَة ومتعجـبة: ﴿**أنى يكون لى غلامٌ ولم يمسسنى بشرٌ، ولم أكُ بَغيًّا**﴾. وقد جرت العادة أن الولد لا يكون إلا بعـد اتصال الرجل بـالمرأة سواء كـان اتصالاً حـلالاً أم حرامـاً ﴿**قال كذلك قـال ربك هو علىَّ هيِّن**﴾ إن الأمر أمـر الله، وإذا كان كذلك فهـو أمر هين على الله، لأن الله تعالى إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون ﴿**قال كذلك قال ربِّك هو علىَّ هيِّن، ولنجـعله آية للناس**﴾ تدل على كمال قدرة الله، ولتتم القـسمة الرباعية وتكتـمل، ذلك أن الله تبـارك وتعالى خـلق الإنسان الأول آدم علـيه السـلام من تراب، من غـير ذكـر ولا أنثى، ثم خلق حـواء من آدم، من ذَكَرٍ بدون أنثى، ثم خلق من الذكر والأنثى، ثم أراد الله تعالى أن تغلق الدائرة وتتم القسمة، فأراد أن يجعل مريم تلد عيسى بدون أن يمسّها بشر ﴿**ولنجعله آية للناس، ورحـمةً منا وكان أمرًا مقضيًا**﴾.

وهنا أُزيحَت الشبهات، وأزيلت الشكوك، فاستسلمت مريم لأمر ربها عزّ وجلّ، فنفخ جبـريل فى جيب درعهـا، فسلكت تلك النفـخة طريقهـا، حتى وصلت إلى مـحل الحمل وهو الرحـم، وهناك التقت النـفخـة ببويضـة المرأة، وتم التلقـيح، وحلّت النفخة محل الحيوان المنوى من الرجل ﴿**وكان أمرًا مقضيًا**﴾.

وهذا هو المشهد الأول يتم على النحو الذى ذكرنا، فَلْنُسْدِل الستار عليه لنرفعه عن المشهد الثانى.

ومرت الأيام وظهر الحمل وانتفخ بطنهـا، وكان مع مريم فى خدمة البيت ابن عم لها يقـال له يوسف النجار، فلمـا رأى بطنَ مريم تكبُر يومـاً بعد يوم، وشكلَ مريم يتغـير يوماً بعد يوم أخذته الشكوكُ من أين هذا؟ ولكن لِمَا يعلمـه من عبادة مريم وزهدها، وطُهـرها ونقائها، وقـيامهـا بعبادة ربهـا عزّ وجلّ، اجتـهد أن يُبْعِد الشكوك والظنونَ السيئةَ التى تدور فى نفســه حول مريم، ولكنه عجز عن أن يكتم ما يجده فى نـفسه، فاحتـال على أن يسألها عن سرٍّ مـا فى بطنها ولكن عن طريق التلمـيح لا عن طريق التصـريح، قال: يا مـريم، إنى سائلك سـؤالاً فلا تعـجلى علىّ، قـالت: ما هـو؟ قال: هل يكون شـجـر بدون بذر؟ وهل يكون زرعٌ بدون حبّ؟ وهل يكون ولد بدون أب؟ وأدركت مريم ما يريد يوسف، فقالت: يا يوسف، أمـا ما ذكـرت من الزرع والشجـر يكون بدون حبّ وبذر، فـإن الله خلق الشجـر والزرع أول مـا خلق بدون بذر وحبّ، وأمـا الولد يكون بدون أب فـإن الله خلق آدم أول ما خلق بدون أب[1].

هنالك تأكد يوسف أن لمريم أمراً عظيماً، فتركها وشأنها.

ولما انقـضت الأيام خرجت مـريم من المسجـد **﴿فـأجاءها المَخَاضُ إلى جـذع النخلة﴾** أى ألجأها وجع الولادة إلى جـذع النخلة، وهنالك تمنَّت مريم أن لم تكن وُلِدَتْ، قالت بكل أسى وبكل حزن: **﴿يا ليتنى متُّ قبل هذا، وكنت نسيًا منسيًا﴾**. أى شيئًا حـقيراً مهملاً ألقـاه أهلُه زاهدين فيه: **﴿فناداها من تحـتها: ألا تحـزنى، قد جعل ربك تحتك سَرِيًّا * وهزِّى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًا * فكلى واشربى وقرِّى عـينا، فإما تَرَيِنَّ من البشـر أحدًا فقولى إنى نذرت للـرحمن صومًا، فلن أكلم اليوم إنسيا﴾**. والمنادى هو عيسى عليه السـلام ناداها من تحتها ولم يمض على ميلاده لحظات، ناداها بصوت فصيح: **﴿ألاَّ تحزنى﴾** عَلاَمَ الحزنُ؟ واللهُ الذى

(١) ابن كثير (٣/١١٦).

كان يـأتيك بالرزق وأنت فى المحراب لم يتـخَلَّ عنك، فـ ﴿**قد جـعل ربك تحتك سَرِيًّا * وهزِّى إليك بجذع النخلة تساقط عـليك رطبًا جنيًا * فكلى واشربى وقرِّى عينا**﴾ فإن الله لن يفـضحك، ثم أرشدها إلى أنها إذا قـابلت قومها فـلا تكلمهم، ولْتَقُلْ: إنى صائمة، وكان الصـوم عن الكلام فى شرع من قبلنا جائزاً، ولكن فى شـرعنا لا يجـوز الصـوم عن الـكلام، ولذلك «كـان رسـول الله ﷺ قـائمًا يومًا يخطب، فإذا رجل قائـم فى الشمس، فسأل عنه، فقـالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر أن يقـوم ولا يقـعد، ولا يسـتظل ولا يتكلـم، ويصوم، فـقـال النبى ﷺ: مُرُوه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه»[1].

وهنا نجد أنفسنا أمام المشهد الثالث فى قصة ميلاد المسيح عيسى عليه السلام.

رجعت مـريم وعيـسى بين يديها تحملـه، كانت تمشى واثقةَ الخطـى، مطمئنّةَ القلب، متوكلةً على ربّها عزّ وجل، ﴿**فأتت به قومَها تحملُه**﴾، وهنا كانت المفاجأة إذ خرج إليها القوم منكرين ما يرونه: ﴿**قالوا يا مريم لقد جـئت شيئًا فَرِيًّا، يا أخت هارون**﴾ وهارون كان رجلاً صالحاً يُشَبَّه به كل صالح، فقولُهم: ﴿**يا أخت هارون**﴾ يعنى يا أخت هارون فى الصـلاح والتقوى، كـيف كان منك هذا و﴿**ما كان أبوك امرأ سوءٍ وما كانت أمك بغيًّا**﴾ وإنما نشأت فى بيت صالح، فى بيـئة تقوى وورع وإيمان وإخلاص، فكـيف اقترفتِ هذه الجـريمة؟ وهناك تذكرت مـريم أمر ربهـا لها على لسان عيسى ﴿**فإما تَرَيِنَّ من البشر أحدًا فقولى إنى نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسيًا**﴾، ﴿**فأشارت إليه**﴾ فأخذتهم الدهشة والحـيرة وقالوا: لَسُخْرِيَتها بنا حين تأمـرنا أن نكلم هذا الغلام وهو فى المهـد أشدُّ علينا من تلك الجـريمة التى ارتكبْتها، فأنطق اللهُ تعالى عيـسى وهو لم يزل فى المهد صبيا ﴿**قال إنى عبد اللَّه**﴾ أول ما نطق به أن أثبت عبوديته لله ﴿**قال إنى عبد اللَّه آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ،**

(١) صحيح: رواه خ (٦٧٠٤/٥٨٦/١١)، د (٣٢٦٦/١١٣/٩)، جه (٢١٣٦/ ٦٩٠/ ١). [الإرواء: ٢٥٩١].

وجعلنى مباركًا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرًا بوالدتى ولم يجعلنى جبارًا شقيًا، والسلام علىّ يوم ولدت، ويوم أموت، ويوم أُبعَثُ حيًا ﴾ .
إذن عيسى قد ولد، وسيموت، وسوف يُبْعَثُ حيًا مع الناس يوم القيامة، فكيف يقال: إنه إله؟ وهل وُجدَ الإله بعد عدم؟ وهل يموت الإله؟ ويغيب عن الخلق؟ فمن الذى كان يدبر الكون قبل أن يوجد عيسى الإله؟ ومن الذى يدبره إذا مات عيسى الإله؟!

قال الله فى نهاية القصة: ﴿ **ما كان للَّه أن يتخذ من ولد ، سبحانه**﴾ ، لا يليق أبداً بالله أن يتخذ ولداً، هذا مستحيل على الله، ذلك أن الولد إنما يحرص عليه الفانى الذى يموت ليحمل اسمَه بعد موته، وتمتد سيرته، وإنما يحرص على الولدِ الفقيرُ الذى يريد أن يستغنى بمال ولده، والله تعالى حىّ لا يموت، غنى عن العالمين، فليس لله حاجة أن يتخذ ولداً ﴿**سبحانه إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون**﴾ .
ثم قال عيسى لقومه داعياً لهم إلى عبادة الله الواحد ﴿**وإن اللَّه ربى وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم**﴾ .

هذه هى قصة ميلاد عيسى ابن مريم عليه السلام، ونحن نشهد أنها الحق من ربنا، ونرجو الله أن يثيبنا كما وعدنا، قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من عمل»[1].

هذا بلاغ للناس ولينذروا به، وليعلموا أنما هو إله واحد، وليذكر أولوا الألباب.

* * *

(١) متفق عليه: رواه خ (٣٤٣٥/ ٦/٤٧٤)، م (٢٨/ ٥٧/ ١).

٣ - نزول عيسى عليه السلام من السماء

الآن وقد عرفنا على وجه التحديد قصة ميلاد مريم وولدها عيسى عليهما السلام، نَصِلُ إلى ما أردنا ذكره وبيانه وهو الكلام عن نزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء فى آخر الزمان، وذلك هو العلامة الثالثة من علامات الساعة الكبرى.

وحين نقول نزول عيسى، يطرأ سؤال وهو: كيف رُفِعَ عيسى إلى السماء؟ وهل يمكن أن يرفع أحدٌ وهو حيّ إلى السماء، ويمكث فيها سنين طوالاً، تزيد على الألف، ثم ينزل إلى الأرض، فيعيش عليها كما يعيش الناس، يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون، ويتزوج ويولد له، ثم يموت بعد هذا؟

إن هذا هو الذى قضاه الله تبارك وتعالى فى عيسى عليه السلام.

إننا قد عرفنا كيف وُلِدَ عيسى، وكيف أنطقه الله فى المهد صبيا.

ولما بلغ عيسى عليه السلام أشُدَّه واستوى، قام فى بنى إسرائيل مقام الأنبياء **﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول اللَّه إليكم، مصدقًا لما بين يدىَّ من التوراة، ومبشرًا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد﴾**[الصف: ٦].

دعا عيسى عليه السلام بنى إسرائيل إلى التوحيد، ودعاهم إلى الإسلام، دعاهم إلى عبادة الله وحده فما آمن معه إلا قليل، ووقفوا منه موقف المكذبين المعاندين. وكان الله قد أيَّد عيسى بالمعجزات، شأنُه فى ذلك شأنُ جميع الأنبياء والمرسلين، إذ يُجْرى اللهُ تعالى المعجزات على أيديهم تأييداً لهم وتأكيداً على صدقهم فيما يَدَّعُون من النبوة والرسالة، وكان من معجزات عيسى عليه السلام أنه يبرىء

الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله عزّ وجلّ، وكان من معجزاته أنه يأخذ من الطين فيجعل منه على هيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيقوم الطيرُ حيًا بإذن الله.

ومع كل هذه المعجزات الدالّة على صدقه في نبوته ورسالته إلا أنهم كذبوه وجحدوا ما جاءهم به، وأبوا إلا الكفر والتكذيب، ولم يكتفوا بهذا، بل إنهم سعوا إلى ملك ذلك الزمان، وكان مقامه في دمشق، ووشَوْا إليه، وقالوا في عيسى عليه السلام ما هو منه براء، قالوا: أيها الملك إن ببيت المقدس رجلاً يدعو الناس إلى الباطل ويصدّهم عن الطاعة لك، وفَرَّقَ بين الرجل وأخيه، وبين الرجل وابنه، وفضلاً عن ذلك فإنه ولد زنا، وما زالوا بالملك حتى أصدر أمرَه بالقبض على هذا الرجل وقَتْله وصَلْبه، يقول الله عز وجل: **﴿فلما أَحَسَّ عيسى منهم الكُفرَ قال: من أنصاري إلى اللَّه؟ قال الحواريون: نحن أنصار اللَّه، آمنا باللَّه، واشهد بأنا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزَلتَ واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين، ومكروا ومكر اللَّه، واللَّه خير الماكرين﴾**[آل عمران: ٥٢-٥٥].

مكر اليهود بعيسى ليتخلصوا منه بالقتل والصلب، ومكر الله بهم، فألقى شبه عيسى على رجل من أصحابه، فأخذوا الشبه فقتلوه وصلبوه، ظانِّين أنه عيسى **﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم﴾**[النساء: ١٥٧]، **﴿ومكروا ومكر اللَّه واللَّه خير الماكرين، إذ قال اللَّه يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليَّ﴾**. والوفاة هنا هي النوم، فإن النوم يسمّى وفاةً ويسمى موتاً، ولذلك قال الله تعالى: **﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى﴾** [الأنعام: ٦٠]. وقال تعالى: **﴿اللَّه يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾**[الزمر: ٤٢].

ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا وضع جنبه على فراشه لينام يقول: «باسمك ربّي وضعتُ جنبي وبك أرفعه، إن أمسكتَ نفسي فارحمها، وإن أرسلتَها فاحفظها

بما تحفظ به عـبادك الصالحين»[١]. فإذا ردّ الله عليـه روحه وبعـثه من نومـه قال: «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[٢].

إذن النوم يسمّى مـوتاً ويسمّى وفاةً، وعليه فـقول الله عزّ وجلّ لعيـسى عليه السلام: ﴿**إنى متوفيك**﴾ يعنى مُرْسِلٌ عليك النومَ، فإذا نمت رفعتُك إلىَّ.

بينما عـيسى عليه السلام فـى داره فى بيت المقدس ومعه نفـر من الحواريين، قيل كانوا ثلاثة عشر رجلاً، إذا به يحس بمجىء نفـر من اليهود للقبض عليه، فلما علم أنهم لابد مدركـوه، أوحى الله إليه أن يدعو واحـداً من أصحابه لـيلقى عليه شبه عيسى فيقتل بدلاً منه، ويكون رفيـق عيسى فى الجنة، فقال عيسى لأصحابه: أيكم يُلْقَى عليه شبـهى فيقتل بدلاً منى، ويكون رفيقى فى الجنـة؟ فقام شابٌ من أصغر القـوم سنًا، قال: أنا يا روحَ الله، فقال: اجلس، ثم أعـاد الطلب مرة ثانية فقام نفس الشاب، ثم أعاد فقام نفس الشـاب، فألقى الله تبارك وتعالى شبه عيسى على ذلك الشاب، وفتح عن سقف البيت وصارت فـيه طاقة، أخذ الله عيسى منها ورفعه إليه وهو نائم ﴿**إذ قال اللَّه يا عيسى إنى مـتوفيك ورافعك إلىَّ ومطهِّرك من الذين كفروا**﴾.

ودخل الطلبُ الدارَ فوجدوا القوم وبينهم هذا الرجل الذى أُلْقِىَ عليه شبه عيسى فظنوه عيسى فأخذوه وقيدوه، وصلبوه وقتلوه، ظانين أنهم قتلوا عيسى ﴿**وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم، وإن الذين اختلفـوا فيه لفى شك منه، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقينا. بل رفعه اللَّه إليه، وكان اللَّه عزيزًا حكيما * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا**﴾. يعنى سينزل عيسى آخر الزمان ويؤمن به نفر من اليهود والنصارى الذين يرونه بعد نزوله.

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٦٣٢٠/ ١٢٥/ ١١)، م (٢٧١٤/ ٢٠٨٤/ ٤)، ت (٣٤٦١/١٣٩/٥)، د (٥٠٢٩/٣٩١/١٣).
(٢) صحيح: رواه خ (٦٣١٢/١١٣/ ١١)، ت (٣٤٧٧/١٤٦/ ٥)، د (٥٠٢٨/ ٣٩١/ ١٣).

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليوشكن أن ينزل فيكم عيسى بن مريم، حكماً عادلاً فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد»، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم قول الله: ﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته**﴾[النساء: ١٥٩][1].

ينزل عيسى آخر الزمان عند المنارة البيضاء شرقى دمشق، واضعاً كفيه على جناحى ملكين تقطر رأسه ماء وإن لم يُصِبْهُ بَلَلٌ، ويتحدَّر منه كالجمان، فينزل فى دمشق[2]، ثم يتوجه إلى بيت المقدس، فيدرك المهدى، وقد أقيمت الصلاة للصبح، فإذا رأى المهدىُّ عيسى تأخّر له وقال: تقدّم يا روح الله فصَلِّ بنا، فيقول عيسى: لا، إن هذه الأمة بعضها أمراء على بعض، تكرمة الله لهذه الأمة[3]، فيصلى عيسى خلف المهدى صلاة الصبح، ثم يفتح باب المسجد، فيجد الدجال ومعه سبعون ألفاً من اليهود، فإذا رأى الدجالُ عيسى ولىّ هارباً، فيدركه عيسى عند باب لدّ فيضربه بالحربة فى صدره فيقتله[4].

كم يمكث عيسى فى الأرض بعد نزوله؟

يمكث عيسى عليه السلام فى الناس بعد نزوله من السماء خمسة وأربعين عاماً، كما جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ: «لينزلن فيكم ابن مريم، فيتزوج ويولد له، ويمكث فى ا لأرض خمساً وأربعين سنة، ثم يموت ويدفن معى فى قبرى، فأكون أنا وعيسى ابن مريم فى قبر واحد، بين أبى بكر وعمر»[5].

يمكث عيسى خمساً وأربعين سنة، تنزع فيها العداوة والبغضاء والحسد والكراهية

---

(١) **متفق عليه**: رواه خ (٢٢٢٢/ ٤١٤/ ٤)، م (١٥٥/ ١٣٥/ ١)، ت (٢٢٣٤/ ٣٤٤/ ٣).

(٢) **صحيح**: رواه م (٢٩٣٧/ ٢٢٥٠/ ٤)، ت (٢٣٤١/ ٣٤٦/ ٣).

(٣) **صحيح**: رواه م (١٥٦/ ١٣٧/ ١).

(٤) **صحيح**: رواه م (٢٩٣٧/ ٢٢٥٠/ ٤)، ت (٢٣٤١/ ٣٤٦/ ٣)، د (٤٢٩٩/ ٤٤٥/ ١١).

(٥) مشكاة المصابيح (٥٥٠٨/ ١٥٢٤/ ٣) وسكت عنه الألبانى.

من قلوب الناس، ويفـيض المال فيضـاً حتى يزهد الناس فى المال لكـثرته، وتكون السجـدتان أحبّ إلى الإنسان من الدنيا ومـا فيها، وذلك لأن الناس قـد علموا أن الدنيا أوشكت أن تنـتهى فزهدوا فـيها ورغبـوا عنها ورفضـوا المال على الرغم من كثرته.

وينزع اللهُ السّمّ من كل ذى سمّ، حتى إن الصبية ليلعـبون بالحيات والعقارب لا تضرّهم شيئاً، وحتى إن الذئب ليرعى مع الغنم لا يضرها شيئاً.

يعيش الناس عيشة كلها سلام وأمن وطمأنينة، وتمتلىء الأرض سلاماً، فلا يكون قتال، ولذلك ترخص الخـيل، ويغلو الثـور، ذلك لأن الناس سيشـتغلون بالحرث والزراعة، ويبارك الله فيما يخرج من الأرض، حتى إن أهل البيت ليجتمعون على القطف الواحد من العنب فـيكفيهم، ويجتمـعون على الرمانة الواحدة فـتكفيهم، وذلك بسبب بركة عيسى عليه السلام ﴿**قال إنى عبد اللَّه آتانى الكتاب وجعلنى نبينا، وجعلنى مباركا أينما كنت**﴾ [مريم: ٣٠، ٣١].

ويظل الناس يتمتعون بما هم فيه من هذا النعيم، حتى يخرج يأجوج ومأجوج، وعيسـى بين الناس، فيوحى الله إليه: إنى قـد أخرجت عباداً لا قـدرة لأحدٍ بهم، فحرّز عبادى المؤمنين معك إلى جبل الطور، فـيفعل عيسى عليه السلام، ثم يخرج يأجوج ومأجوج ﴿**وهم من كل حــدب ينسلون**﴾ [الأنبـياء: ٩٦]، فكيف يخـرجون ومتى؟ وأين هم الآن؟ هذا ما سنعرفه إن شاء الله.

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

* * *

٤ - خروج يأجوج ومأجوج

العلامة الرابعة من علامات الساعة الكبرى هى خروج يأجوج ومأجوج، وقد جاء ذكرهم صراحةً فى القرآن الكريم مرتين:

فى سورة الكهف يقول ربّنا عزّ وجلّ: ﴿**قالوا: يا ذا القَرنَين إن يأجُوجَ ومَأجُوجَ مُفسدون فى الأرض فهل نَجعلُ لك خَرجًا على أن تجعل بيننا وبينهم سدًا**﴾ [الكهف: ٩٤].

وفى سورة الأنبياء يقول ربّنا عزّ وجلّ: ﴿**حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج، وهُم من كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُون**﴾ [الأنبياء: ٩٦.

وأما الأحاديث فكثيرة:

منها: حديث أم المؤمنين زينبَ بنتِ جحشٍ رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ دخل عليها ذات ليلة فَزِعًا مُحْمَرًا وَجْهُه وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه، وحلَّق بإصبعيه الإبهام والسبابة»[١].

ومنها: حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى لآدم يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك يا رب، فيقول: ابعث بَعْثَ النار من ذريتك، فيقول: كم يارب؟ فيقول الربّ عزّ وجل: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذاك يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. فاشتدّ ذلك على أصحاب

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٣٥٩٨/ ٦١١/٦)، م (٢٨٨٠-٢- /٢٢٠٨/ ٤)، ت (٢٢٨٢/ ٣٢٥/ ٣) بنحوه.

رسول الله ﷺ فقالوا: أىْ رسولَ الله، فـأينا ذلك الواحد؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبشروا، فـإن منكم الواحد، ومن يأجوج ومـأجوج الألف»[١]. والأحاديث فى ذلك كثيرة.

وسنعتمد على ما ذكره الله تعالى فى سورة الكهف، حيث أن الله تبارك وتعالى ذكر لنا قصة ذى القرنين، الذى بنى السّدّ وحال بين الناس وبين يأجوج ومأجوج، وكفى أهل الأرض شرهم، بحجزهم وراء هذا السّدّ.

حدث أن مشركى مكة أرسلوا نفراً منهم إلى المدينة حـيث يوجد أحبار يهود، يسألونهم عـن خبر مـحمد، لأنهم ـ أى اليـهود ـ أعلم بالكتب السـماوية، وأعلم بالأنبياء وسيـرتهم، فأتى ذلك النفرُ المدينةَ وقصّوا على أحبار يهود مـا سمعوه من رسول الله ﷺ وسـألوهم: أيمكن أن يكون محمـدٌ نبياً؟ فقـالت أحبار يهـود لنفر قريش: ارجعوا إلى محمد فسلوه عن ثلاثة أشـياء، فإن أخبركم بها فهو نبىّ، وإن لم يخبركم بها فإنما قد تقوَّل قولاً من عنده:

سلوه عن الروح ما هى؟

وسلوه عن شبـاب خرجوا من بين قومـهم فمكثوا بعـيداً عنهم سنين طوالاً، وكان لهم شأن عجيب؟

وسلوه عن رجل ملك المشرق والمغرب؟

فرجعوا إلى قومهم فقالوا: قد جئناكم بالقول الفصل، ثم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، إنا سائلوك عن ثلاثة أشياء، فإن أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك. قال: ومـا هى؟ قالوا: أخـبرنا ما هى الروح؟ وأخـبرنا عن فتـية خـرجوا من بين قومهم فمكثوا بعيداً عنهم سنين طوالاً؟ وأخبرنا عن رجل ملك المشرق والمغرب؟

فقال رسول الله ﷺ: غدا أخبركم، ولم يقل: إن شاء الله.

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٤٧٤١/٤٤١/٨)، م (٢٢٢/٢٠١/١).

وانتظر رسول الله ﷺ أن يأتيه الوحى فلم يأته، ومضت الأيام وطالت، والوحى منقطع، حتى اشتد ذلك على رسول الله ﷺ وإذا بالوحى يتنزّل بالجواب الشافى:

﴿ويسألونك عن الروحِ؟ قل الروحُ من أمر ربى، وما أُوتيتم من العِلم إلا قليلا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وأنزل الله سورة الكهف جواباً عن السؤالين الأخيرين[1]، فذكر فيها قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين، ثم علّم اللهُ رسولَه ﷺ إذا قال: غدا أفعل، أن يَرُدَّ الأمر إلى مشيئة الله **﴿ولا تقولَنَّ لشىء إنى فاعل ذلك غدا * إلا أن يشاء اللَّه﴾** [الكهف: ٢٣، ٢٤] . لأن كل شىء يجرى بتقدير الله ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء الله لهم، فما شاء لهم كان وما لم يَشَأْ لهم لم يكن.

قال الله تعالى: **﴿ويسألونك عن ذى القرنين؟ قل سأتلوا عليكم منه ذكرا * إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا * فأتبع سببا * حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تَغرُبُ فى عَين حَمِئة ووجد عندها قومًا قلنا يا ذا القرنين إما أن تُعذب وإما أن تَتَّخذ فيهم حُسنًا * قال أما من ظَلَمَ فسوف نعذِّبُهُ ثم يُرَدُّ إلى ربه فيُعَذِّبُهُ عذابا نكرا * وأما من آمن وعمل صالحًا فله جَزاءً الحُسنى وسنقول له من أمرنا يُسرا * ثم أتبع سَبَبًا * حتى إذا بلغ مَطلعَ الشَمسِ وجدها تطلُعُ على قومٍ لم نجعل لهم من دُونهَا ستراَ * كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً * ثم أتبع سببا * حتى إذا بلغ بين السَّدَّينِ وجد من دُونهما قومًا لا يكادون يفقهون قولا * قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مُفسدون فى الأرض فهل نجعَلُ لكَ خَرجًا على أن تجعل بيننا وبينهم سدًا * قال ما مكنى فيه ربى خَيرٌ فأعينونى بقوة أجعَل بينكم وبينهم رَدمًا * ءاتونى أُفرِغ عليه قطراَ * ءاتونى زُبَرَ الحديد حتى إذا ساوى بين الصَّدَفينِ قال انفُخُوا حتى إذا جعله نارًا قال ءاتونى أُفرِغ عليه قطرًا * فما اسطَاعُوا**

---

(١) الدر المنثور (٥/٣٥٧) وعزاه: لابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبى نعيم والبيهقى فى الدلائل.

أن يظهَرُوه وما استَطَاعُوا له نَقَبا * قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جَعَلَهُ دَكَّاء وكان وعد ربى حقا * وتـركنا بَعضَهُم يومئذ يموجُ فى بعضٍ ونُفخَ فى الصُّور فجمعنـاهم جَمعًا * وعرضنا جهنم يومئذ للكافـرين عَرضًا * الذين كانت أعيُنُهُم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا﴾ [الكهف: ٨٣ - ١٠٠].

فذكر الله لذى القرنين ثلاث رحلات:

الأولى: إلى الغرب.

والثانية: إلى الشرق.

والثالثة: إلى ما بين السّدّين.

أما الرحلة الأولى: فإن الله تعالـى قد مكّن لذى القرنين فى الأرض، وسخّر له أسباب كل شىء، ليتمكن بذلك من ملك الأرض والسيطرة عليها والهيمنة عليها.

فخرج يومـاً مع جنوده فى رحلة إلى المغرب، حتى انتهى إلى البـحر المحيط، وهناك رأى الشمس تغرب فى عينٍ حَمِئَةٍ، ومغربُ الشـمس يختلف بالنسبة للرائى وبالنسبة للمكان، فأنت إذا كنت فى الوادى أمـام الجبل رأيت الشمس عند غروبها وكأنهـا تسقط خلف الجـبل، وإذا كنت على الساحـل تراءت لك كأنها تـسقط فى البحر، وهكذا.

﴿حتى إذا بـلغ مغرب الـشمس وجدها تـغرب فى عين حـمئة ووجـد عندها قومًا﴾ فمكّنه الله منـهم وخيّره أن يفعل فـيهم مـا يشاء **﴿قلنا يا ذا القـرنين إمـا أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا﴾**، وهنا يظهر عدلُ ذى القرنين وسماحته ورحمته ورأفتُه، وإيمانه بالله عزّ وجلّ، فإن ذا القرنين عـبدٌ صالح، مؤمن موحّد، قال ذو القرنين: **﴿قـال أما من ظلم فـسـوف نعذبه ثم يُرَدُّ إلى ربه فـيـعذبه عـذابا نكرا﴾** يعنى: أما من ظلم نفسه بالشرك وبالكفر، ولم يتبعنى، ولم يؤمن بالله عزّ وجلّ، ويترك عـبادة ما سواه، فـسوف أعذبه فى الدنيا عـذاباً شديداً، ثم يُرَدُّ إلى ربه يوم

القيامة فيعذبه عذاباً نكرا، ﴿**وأما من آمن وعمل صالحًا فلـه جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا**﴾ يعنى وأما من آمن بى واتبعنى على مـا جئت به من الدعوة إلى الله، وتوحيد الله، وترك عبادة ما سوى الله ﴿**فله جزاء الحسنى**﴾ يعنى عند الله، والحسنى هى الجنة، وأما من جِهَتى ﴿**وسنقول له من أمرنا يسرا**﴾.

وهذا هو واجب الحـاكم الصـالح فـى كل زمـان، على الحـاكم الصـالح أن يكافىء المحسنَ على إحسانه، وأن يجازى المسىءَ بإساءته، فإن الناس إذا قـالوا للمحسن: أحسنت، وللمسىء: أسـأت، رجع المسىءُ عن إساءته، واجتهد المحسنُ فى إحسانه، أمـا أن يُقَرَّبَ المسيئون، ويُقْصى المحسنون، فحينذاك ينتشـر الفساد، وتعم الفوضى، وتنزع البركة.

بهذا انتهت الرحلة الأولى نحو المغرب لذى القرنين، فعاد ليتابع المسير نحو المشرق ﴿**حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قـوم لم نجعل لهم من دونها سترا**﴾ أى أن ذا القرنين انتهى فى سفره نحو الشرق إلى جماعة من بنى آدم يعيشون على وجه الأرض، وليس لهم ما يسترهم من الشمس، ثم تابع المسير:

﴿**حتى إذا بلغ بين السدين وجـد من دونهما قوما لا يكادون يفـقهون قولا**﴾.

أين هذان السدّان؟ لم يحدد القرآن لهما مكاناً، فلنسكت عما سكت عنه القرآن.

حتى إذا بلغ بين السدّين وجد من دونهما قوماً متخلفين متأخرين، لا حضارة لهم ولا مدنية، ولا يكادون يفـقهون قولاً. فما إن رأوا ذا القرنين حـتى استغاثوا به لما رأوا من التمكين الذى مكّنه الله له: ﴿**قالوا يا ذا القرنين: إن يأجوج ومأجوج مُفسدُون فى الأرض، فهل نجعَلُ لـك خَرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سَدًا؟**﴾ أى هل نجمع لك من أموالنا عطاء نقدمه لـك مقابل أن تجعل بيننا وبين يأجوج ومأجوج سَدًا؟ وكيف يطمع ذو القرنـين فى حطام الدنيا الزائل، وفى شىء من المال قليل، يجـمعـه له هـؤلاء النـاس، وقـد مكّنه الله فى الأرض كلهـا، وآتاه كنـوزها كلهـا

﴿**قال: ما مكّنّى فيه ربى خير**﴾ أنا لست بحاجة إلى جُعْلِكم، ولا أطمع فى مالكم ﴿**ما مكّنّى فيه ربى خير**﴾ ولكن الذى أرجوه أن تساعدونى بالعدة والعتاد، وأن تعينونى بقوة، أجعل بينكم وبينهم ردماً، آتونى زُبَرَ الحديد، أى قطع الحديد الكبيرة، ﴿**حتى إذا ساوى بين الصدفين**﴾ أى الجبلين وسدّ المدخل الذى بينهما ﴿**قال آتونى أُفْرِغ عليه قطْرا**﴾ والقطر هو النحاس المذاب، وقد ثبت علمياً بعد قرون كثيرة أن النحاس إذا صُبَّ على الحديد أعطى معدناً قوياً شديد الصلابة.

﴿**فا اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعو له نقبا**﴾ يعنى أن يأجوج ومأجوج وقفوا عاجزين أمام هذا السد، فما استطاعوا أن يعلوه حتى ينزلوا من الجهة الأخرى، وما استطاعوا أن يثقبوه فيخرجوا منه.

وقد جاء فى الحديث: «أنهم يثقبون كل يوم من الصباح حتى آخر النهار، يحفرون حفرة كبيرة، حتى إذا جاء الليل، قال قائلهم: ارجعوا ثم ائتوا غداً فتتمون حفركم، فإذا جاءوا من الغد وجدوا السدّ قد عاد كما كان بل أشد، حتى إذا أراد الله أن يُخرجهم أنطق اللهُ قائلهم فقال: ارجعوا يومكم هذا وغدا تأتون فتفتحونه إن شاء الله، فإذا قال: إن شاء الله، عادوا، ثم جاءوا فى الصباح الباكر فوجدوا السد كما هو عليه فأتموا الفتح وخرجوا على أهل الأرض»[1].

فإذا خرجوا أوحى الله إلى عيسى «أن حرّز عبادى إلى جبل الطور، فإنى قد بَعَثْتُ عباداً لا قوة لأحد بهم»[2]. فيخرج يأجوج ومأجوج يمشون فى الأرض، قيل: يكون أولهم بأرض الشام وآخرهم بأرض العراق، ويمرون على الأنهار فيشربونها، حتى إنهم يمرون على بُحيرة طبرية فيشربها أولُهم، حتى إذا مر آخرُهم عليها قالوا: لقد كان فى هذه البحيرة ماء[2].

---

(١) صحيح: رواه جه (٤٠٨٠/ ١٣٦٤/ ٢)، كم (٤٨٨/ ٤)، حب (١٩٠٨/ ٤٧٠)، ت (٥١٦٠/ ٣٧٤/ ٤).

(٢) صحيح: رواه م (٢٩٣٧/ ٢٢٥٠ - ٢٢٥٥/ ٤)، ت (٢٣٤١/ ٣٤٦/ ٣).

فإذا فـرّ الناس منهم إلى الكهـوف والمغارات، والجبـال والوديان، نظروا فلم يجدوا أحداً من أهل الأرض، فقالوا: قد غلبنـا أهل الأرض جميعاً، تعالَوْا لنغلبَ أهلَ السماء، فيرمـون سهامَهم نحو السماء، فتعود إليـهم ملطّخة بالدماء ـ فتنة من الله عزّ وجلّ ـ فيقولون: الآن غلبنا أهل الأرض وأهل السماء.

وعيسى عليه السـلام مع أتباعه بالجبل يتضرع إلى الله أن يكفـيهم شرّ يأجوج ومأجوج، فيرسل الله عليهم دوداً صغيراً يسمى النغف، فيدخل فى أعناقهم فيصبحون وقد ماتوا جمـيعاً موتة رجل واحد، فيـقول عيسى لمن معه: من منكم يبـيع نفسه لله، ويخرج فينظر ما فعل القوم، فيـخرج رجل لينظر ماذا فعل يأجوج ومأجوج، وقد وثق أنه لن يـرجع، قد باع نفسـه فى سبيل الله، حـتى إذا خرج وجـد القوم جميعاً قد ماتوا، فنادى على عيسى وأصحابه أن أبشروا، فإن الله قد كفاكم القوم، فيخرج عيـسى ومن معه، فيجدون رائحتهم المنتنة قد مـلأت الأرض فيتأذَّوْن منها، فيـدعو عـيسى ربه أن يخلصهم من هذه الرائحـة المنتنة، وهذه الأجسـاد المجيـفة، فيرسل الله عليهم حـيوانات فتحملهم ثم تلقى بهم فى البـحر، ثم يمطر الله السماء أربعين يوماً، حتى تطهر الأرض، وتعود بيضاء نقية[1].

بعد ذلك يتـوجه عيـسى بن مريم إلى المدينة قاصـداً بيت الله الحرام للحج أو العمرة، ومن هنـاك يحرم بالرّوحاء[2]، والروحاء مكان بين مكة والمدينة، فـيؤدى عيسى نُسُكَه، ثم يرجع إلى المدينة فيموت بها، ويُدْفَن مع رسول الله ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر، **﴿حـتى إذا فُتحت يأجـوج ومأجـوج وهم من كل حَدَبٍ يَنسِلُون، واقترب الوعد الحق﴾**.

﴿قال هذا رحمة من ربى، فإذا جاء وعد ربى جعله دَكَّاءَ، وكان وعد ربى حقا،

---

(١) صحيح: رواه م (٢٩٣٧/ ٢٢٥٠ - ٢٢٥٥/٤)، ت (٢٣٤١/٣٤٦/٣).

(٢) صحيح: رواه م (١٢٥٢/ ٩١٥/٢).

وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض، ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا﴾. يعنى أن خروجهم إنما يكون قبيل الساعة، ولا يبقى من الدنيا بعد خروج يأجوج ومأجوج إلا قليل.

وبعد :

فهناك شبهة قد تعترض بعض الناس، وهى أننا فى زمان أصبحت جغرافية العالم معروفة ومكشوفة، ومع هذا التقدم لم يُسْمَع عن هذا السّدّ، ولا عن هؤلاء القوم الذين وراءه، ولو كان ذلك حقيقة لاكتُشِف.

والجواب: أنه ليس كل موجود يُرَى، فعقل الإنسان أقرب ما يكون إليه، وهو لا يراه، والجن موجودون ونحن لا نراهم، والملائكة كذلك، فوجب الإيمان بما أخبر به الله تبارك وتعالى والوقوف بأدب مع القرآن، والإيمان بما جاء فيه والسكوت عما سكت عنه، وقد قيل: إن منطقة فى البحر المحيط عند مثلث برمودا لا يدخلها شىء إلا هلك ولا يعرفون عن سرّ ذلك شيئاً إلى الآن، فما الجواب على هذا؟

* * *

٥- ظهور دخان فى السماء

يقول الله تعالى: **﴿فارتقبْ يوم تأتى السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾** [الدخان: ١٠، ١١]. قال ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم: إن هذا الدخان علامة من علامات الساعة، يكون بين يدى الساعة، إيذاناً بقرب انتهاء الدنيا وزوالها، دخان يظهر فى السماء وما بين السماء والأرض، لا يصيب المؤمنَ منه إلا كهيئة الزكام، وأما الكافر والمنافق فإنه يدخل من منخريه وفمه، ويخرج من دبره، ويكون كالشاة تشوى على الرضخ[١].

وهذا الدخان قد ذكره رسول الله ﷺ علامةً من علامات قرب الساعة فى أكثر من حديث.

فعن حذيفة بن أسيد رضى الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر، فقال: ما تتذاكرون؟ قلنا: نتذاكر الساعة. فقال ﷺ: «فإنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات». فذكرها، وعدّ منها الدخان[٢].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال ستا: الدخان، والدجال، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويِّصة أحدكم»[٣].

فإذا اقتربت الساعة، واقترب انتهاء الدنيا كان من علامات ذلك الدخانُ، الذى نطقت به الآية الكريمة والأحاديث النبوية.

---

(١) تفسير ابن كثير (١٣٩/ ٤).

(٢) **صحيح**: رواه م (٢٩٠١/ ٢٢٢٥/ ٤)، د (٤٢٨٩/٤٢٦/١١)، ت (٢٢٧٤/٣٢٣/٣)، جه (٤٠٤١/١٣٤١/٢) مختصراً.

(٣) **صحيح**: رواه م (٢٩٤٧/٢٢٦٧/ ٤)، جه (٤٠٥٦/١٣٤٨/ ٢).

٦- هدم الكعبة المشرفة

ومن العلامات: هدم الكعبة المشرَّفة، قبلة المسلمين، ومهوى أفئدتهم، وقد صرّح بذلك رسول الله ﷺ فقال: «لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت»(١).

لقد ذكرنا حين تحدثنا عن نزول عيسى عليه السلام أنه يحج البيت ويعتمر، وذلك بعد أن يقضى الله على يأجوج ومأجوج، ثم يموت عيسى بالمدينة، ويدفن مع رسول الله ﷺ فى قبره.

وبعد موته عليه السلام يعود الناس إلى ما كانوا عليه من الانحلال والضياع والضلالة، والبعد عن الإيمان والإسلام.

يقول حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يدْرس الإسلام كما يدْرس وَشْيُ الثوب، حتى لا يدرى ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة»(٢).

فإذا كان ذلك خرج رجل من الحبشة فخرّب الكعبة، وهدمها بمعوله، ونقضها حجراً حجراً، واستولى على حُلِيِّها، واستخرج كنزها، ففى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يُخرب الكعبةَ ذو السويقتين من الحبشة»(٣). وهو رجل من الحبشة صرحت الأحاديث ببعض أوصافه، ومنها أنه رجل حبشى أسود، أزرق العينين، ذو سويْقتيْن، يعنى أن ساقيْه رفيعتان، كبير البطن، أصلع، يخرج برجال معه من الحبشة فيأتون بيت الله الحرام فيهدمونه، وينقضونه حجراً حجراً.

---

(١) صحيح: رواه حب (١٨٨٤/ ٤٦٥)، كم (٤٥٣/ ٤).

(٢) صحيح: رواه جه (٤٠٤٩/ ١٣٤٤/ ٢)، كم (٥٤٥/ ٤).

(٣) متفق عليه: رواه خ (١٥٩٦/ ٤٦٠/ ٣)، م (٢٩٠٩/ ٢٢٣٢/ ٤)، نس (٢١٦/ ٥).

٧- رفع القرآن من المصاحف ومن الصدور

إن القرآن الكريم كلام الله رب العالمين، سمعه جبريل من رب العزة سبحانه، ثم بلّغه محمداً كما سمعه وتلاه عليه وقرأه، وكان كلَّ رمضان يُدَارِس النبيَّ ﷺ القرآنَ، حتى إذا كان رمضان الذى تُوفّى بعده رسولُ الله ﷺ، راجع جبريلُ معه القرآنَ مرتين.

إن هذا القرآن كلام الله تعالى أنزله **﴿لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين﴾** [يس: ٧٠] أنزله الله تعالى ليستضىء الناسُ بنوره، ويهتدوا بهديه، ويتحاكموا إليه فى جميع أمورهم دقّها وجلّها، وتوعد الله تعالى الذين ينبذون كتاب ربهم وراء ظهورهم ولا يتحاكمون إليه، فقال: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل اللَّه فأولئك هم الكافرون﴾**، **﴿ومن لم يحكم بما أنزل اللَّه فأولئك هم الظالمون﴾**، **﴿ومن لم يحكم بما أنزل اللَّه فأولئك هم الفاسقون﴾** [المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٧].

إن هذا القرآن لم ينزل ليتلى على المقابر، ولا لِيُقْرَأ على الأموات، ولا لتتخذ منه الحجب، ولا ليكتسب به المال، إنما أنزله الله رحمة وشفاء، ونوراً وضياء للمؤمنين، فإذا طال الزمان وبَعُدَ العهد، ونَسِىَ المسلمون كتاب ربهم، وأصبح الناس لا يعرفون صلاة ولا صياما، ولا صدقة ولا نسكا، حينئذ لم يبق لوجود القرآن بينهم فائدة، فيسرى عليه فى ليلة واحدة حتى لا يبقى منه آية، ويذهب بما فى صدور الحفظة منه، كما جاء فى الحديث عن النبى ﷺ: «يَدْرُسُ الإسلام كما يَدْرُسُ وَشْىُ الثوب، حتى لا يدرى ما صلاة ولا صيام، ولا نسك ولا صدقة، وليسرى على كتاب الله فى ليلة واحدة، حتى لا يبقى منه حرف ولا آية، وتبقى

طوائف من الناس، الشيخ الكبير، والعجوز الكبير، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله فنحن نقولها»[١].

يرفع القرآن من المصاحف، فيصبح الناس يفتحون المصحف فلا يجدون حرفاً ولا آية، وما هى إلا أيام قليلة ويرفع القرآن أيضاً من صدور الحفظة، حتى إن الحافِظَيْن ليلتقيان فيسأل أحدهما صاحبه عن حفظه، فيقول: لا أدرى كنت أحفظ شيئاً لا أدرى ما هو، نسيته.

فيا معشر المسلمين: متعوا أنفسكم بالنظر إلى كتاب ربكم، متعوا أنفسكم بقراءة القرآن فإنه ماتقرب متقرِّب إلى الله بشىء أفضل من كلامه، فاقرءوا القرآن، وارجعوا إليه، وتحاكموا إليه ﴿**إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم**﴾ [الإسراء: ٩]. فى جميع الأمور، وفى كل الشئون، لا يهدى للتى هى أقوم فى مسئلة دون مسئلة، لا يهدى للتى هى أقوم فى قضية دون قضية، إنما لكل قضية حلّ فى القرآن، ولكل مشكلة حلّ فى القرآن، فاستضيئوا بالقرآن يا أمة القرآن، واهتدوا بالقرآن يا أمة القرآن، اقرءوا القرآن، فإن «من قرأ حرفاً من كتاب الله كان له بكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها»[٢]، «اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»[٣]، اقرءوا القرآن واحفظوا منه ما استطعتم فإنه «يقال لقارىء القرآن يوم القيامة: اقرأ وارتقِ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[٤].

اللهم أكرمنا بالقرآن، وبارك لنا فيه، وثبِّته فى صدورنا.

---

(١) **صحيح**: رواه جه (٤٠٤٩/ ١٣٤٤/ ٢)، كم (٤٧٣/ ٤).

(٢) **صحيح**: رواه ت (٣٠٧٥/ ٢٤٨/ ٤).

(٣) **صحيح**: رواه ت (٨٠٤/ ٥٥٣/ ١).

(٤) **صحيح**: رواه ت (٣٠٨١/ ٢٥٠/ ٤)، د (١٤٥١/ ٣٣٨/ ٤).

٨، ٩، ١٠- طلوع الشمس من المغرب، الدابة، الريح

﴿إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين * وفى خلقكم وما يبثُّ من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل اللَّه من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون﴾ [الجاثية: ٣، ٤، ٥].

إن التعرف على الخالق الحق ليس أمراً عسيراً، وإن التعرف على الإله الحق لايحتاج إلى إجراء البحوث والفحوص والتجارب، وإنما يحتاج فقط إلى أن يُمْعِن الإنسان فِكْرَه، ويُعْمِل عقله، هذا العقل الذى هو من أجَلِّ النعم على بنى الإنسان.

فإذا نظر الإنسان فى الكون من حولِه وجد أن كل ما حولَه ليس له من نفسه وجود، وليس له من نفسه نفع ولا ضر، إنما الأمور تجرى على كل المخلوقات، والسنن الكونية تطبَّق عليها بدون إرادة منها ولا رغبة، فمن الذى يتصرف فى هذا الكون؟ ومن الذى يتفضل على هذا فيعافيه ويعدل مع الآخر فيبتليه؟

إن العقل السليم إذا جال بفكره فى ملكوت السموات والأرض وجد كل شىء قد كتب عليه **﴿صُنْعَ اللَّه الذى أتقن كل شىء﴾**. **﴿وفى الأرض آيات للموقنين. وفى أنفسكم، أفلا تبصرون﴾** [الذاريات: ٢٠، ٢١]. وفى الأرض آيات تدل على قدرة الله، وتدل على عظمة الله، وتدل على وحدانية الله تبارك وتعالى، وفى أنفسكم أيضاً مثل هذه الآيات، فإذا أنتم نظرتم فيما حولكم إلى السماء أو إلى الأرض، أو نظرتم فى أنفسكم علمتم أن لهذا الكون خالقاً خلقه، وأن وراء هذا الكون مالكاً يملكه ويتصرف فيه، وتجرى فيه مشيئتُه وإرادتُه سبحانه وتعالى: **﴿أفلا تبصرون﴾**، أعميان أنتم لا تبصرون هذه الآياتِ القريبةَ منكم، أم ختم على سمعكم وبصركم

فلا ترون هذه الآيات؟. لـقد حدث أن رجـالاً أرادوا أن يناظروا الإمام أبا حنيـفة النعمان فى قضية وجود الربّ، فلما اجـتمعوا لم يزد الإمام على أن قال لهم: لقد رأيتُ فى دجلة عجبـا، قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت سفـينةً تغدو وتروح، تحمل وتفرغ وحدها، قالوا: لا يعقل هذا يا أبا حنيـفة، فقال: إذا كان لا يعقل هذا فى سفـينة صغيـرة، فكيف يعقل أن يكون هذا الكـون كله بدون مدبر؟»[1] ﴿فبُهِتَ الذى كفر﴾.

إن الآيات الكونيـةَ الدالةَ على قـدرة الله وعظمتـه كـثيـرة ﴿ومن آياته الـليل والنهار والشمس والقمر﴾ [فصلت: ٣٧]. لقد كان أحد الأعراب يسـير يوماً، فأمعن نظره وجال بفكره ثم قال: «إن البعر يدل على البـعير، وإن الأثر يدل على المسير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذات أمـواج، وليلٌ ونهار يتعاقبان، وشمسٌ تشرق وتغرب، أفلا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟»[2].

إن الشمس والقمر آيتان من آيات عظمة الله ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدَّرْناه منازل حـتى عاد كالعرجون القـديم * لا الشمس ينبغى لهـا أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون﴾[يس: ٣٧ - ٤٠].

﴿اللّه الذى رفع السموات بغير عمد تـرونها، ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقـمر كُلٌ يجرى لأجَلٍ مُسَمى، يدبّر الأمـر، يُفَصِّل الآيات، لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾[الرعد: ٢].

فهذه الشمس تشرق وتغرب، والقمر كذلك، كل يجرى لأجل مسمى عند الله تبارك وتعالى، فإذا انتهى ذلك الأجل تغـيّرت تلك السنن، وتغيّرت معالم الشروق

(١) شرح الطحاوية (٨٣).

(٢) معارج القبول (١/ ٧٠).

والغروب، وصار فى الكون العلوى تغيّر عجيب جداً، يذهل الناس، فإذا كان ذلك **﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا﴾**[الأنعام: ١٥٨].

إن العلامة الثامنة من علامات الساعة الكبرى هى خروج الشمس من جهة المغرب، على غير ما جرت عليه الزمن كلّه، ولقد عهدناها تشرق من الشرق وتغرب فى الغرب، حتى إن الخليل إبراهيم عليه السلام تحدّى النمرود أن يأتى بها من الغرب **﴿ألم تر إلى الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه أن آتاه اللّٰه الملك، إذ قال إبراهيم: ربى الذى يحيى ويميت، قال أنا أحيى وأميت، قال إبراهيم: فإن اللّٰه يأتى بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب؟! فبُهِتَ الذى كفر، واللّٰه لا يهدى القوم الظالمين﴾**[البقرة: : ٢٥٨]. بهت الذى كفر لأنه لا يستطيع أن يأتى بالشمس من المغرب، بل لا تستطيع الدنيا كلها، فبهت الذى كفر، وأخرس لسانه، وانقطعت حجته لأنه طُلِبَ منه أمر لا يستطيعه ولا يقدر عليه **﴿ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾**، فإن الليل والنهار، والشمس والقمر، كل يجرى بتدبير الله وتقديره **﴿قل أرأيتم إن جعل اللّٰه عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة، مَنْ إلهٌ غيرُ اللّٰه يأتيكم بضياء؟ أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل اللّٰه عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة، من إله غير اللّٰه يأتيكم بليل تسكنون فيه؟ أفلا تبصرون؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾** [القصص: ٧١، ٧٢، ٧٣].

فإذا أراد الله أن يُفْنِى هذا العالم ويبيده ليردّ الناس جميعاً إليه **﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى﴾** [النجم: ٣١]. وقتئذ تغربُ الشمس فإذا حان وقت شروقها استأذنت ربّها أن تعود فلم يأذن لها، وأمرها أن تشرق على الناس من حيث غربت، فيصبح الناس وقد طلعت الشمس من جهة الغرب، يقول تعالى: **﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة، أو يأتى ربك، أو يأتى بعض آيات ربك، يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو**

كسبت فى إيمانهـا خيراً، قل انتظروا إنا منتظرون﴾ [الأنعام: ١٥٨]. هذا وعيد من الله تبارك وتعالى للكافـرين والعصاة والفاسقين، ماذا عـساهم ينتظرون؟ فهل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة، يعنى ملائكة الموت، تتنزّل عليهم لقبض أرواحهم، وحينذاك لا تنفع التوبة، ولا ينفع الندم، أم هل ينظرون إلا أن يأتى ربك، يعنى يوم القيامة لفصل القضاء بينهم، كـما قال تعالى: **﴿كـلاَّ إذَا دُكَّتِ الأرْضُ دَكًا دَكًا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا﴾** [الفجر: ٢١، ٢٢].

هل ينظرون إلا أن تأتيهـم بعض آيات ربك المؤْذنة بانتهاء الدنيـا، فَسَّرَ رسول الله ﷺ هذه الآيات بأنها طلوع الشمس من المغرب، فـقال ﷺ فى الحديث المتفق عليه: «لا تقـوم الساعة حـتى تطلع الشمس من مـغربها فـإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وحينذاك **﴿لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا﴾**»[١].

أما العـلامة التاسـعة: فهى خـروج دابة من الأرض تكلّم الناس، وتميز المؤمن من الكافر، وتضرب على المؤمن علامة نور فى وجهه، فيُعْرَف بها إيمانه، وتضرب على وجـه الكافر عـلامة سوداء فـيُعْرَف بها كـفره، حـتى إن أهل البيت الـواحد ليجتمعون على الطعام، فيقول أحدهم: خذ يا مؤمن، ويقول الآخر: خذ يا كافر.

قال الله تعالى: **﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾** [النمل: ٨٢].

وعن حذيفة بن أسـيد قال: خـرج علينا النبى ﷺ ونحن نتذاكر، فـقال: «ما تذاكرون؟» قالوا: نذكـر الساعة. فقال ﷺ: «إنهـا لن تقوم حتى تروا قبلهـا عشر آيات. . . . وذكر منها الدابة»[٢].

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٦٥٠٦/ ٣٥٢/ ١١)، م (١٥٧/ ١٣٧/ ١)، د (٤٢٩٠/ ٤٣٥/ ١١)، جه (٤٠٦٨/ ١٣٥٢/ ٢).

(٢) صحيح: رواه م (٢٩٠١/ ٢٢٢٥/ ٤)، د (٤٢٨٩/ ٤٢٦/ ١١)، ت (٢٢٧٤/ ٣٢٣/ ٣)، جـه (٤٠٤١/ ١٣٤١/ ٢) مختصراً.

وقال ﷺ: «بادروا بالأعمال ستا: الدخان، والدجال، ودابة الأرض...»[1].

وخروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب علامتان مقترنتان، إنْ سبقت إحداهما الأخرى كانت الثانيةُ على إثرها، قال ﷺ: «إن أوّل الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضُحًى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً»[2].

من أين تخرج هذه الدابة؟ وما هى أوصافها؟ وكيف تكلم الناس؟ كل ذلك لم يرد فيه حديث صحيح عن صاحب الوحى ﷺ، فلنسكت عما سكت عنه القرآن والسنة.

إن القرآن قد ذكر خروج هذه الدابة، واستفاضت الأحاديث عن رسول الله ﷺ فى ذكر العلامات الكبرى التى تكون بين يدى الساعة، وعدّ منها ﷺ الدابة، وذكر ﷺ أنها تَسِمُ الناس على خراطيمهم وفى وجوههم، فأما المؤمن فتمسح عليه فيبيضّ وجهه ويظهر نور إيمانه، ويكتب بين عينيه «مؤمن»، وأما الكافر فتمسح على وجهه فيسودّ ويكتب بين عينيه «كافر»، حتى إن الناس ليتبايعون فى الأسواق فيقول هذا: بعْ يا مؤمن، ويقول الثانى: اشتَرِ يا كافر، حتى إن الناس ليسألون الرجل: ممن اشتريت هذه البضاعة؟ فيقول: من فلان الكافر.

وليس عجباً أن تُكَلِّم الدابةُ الناسَ، فقد أخبر ﷺ أنه «لا تقوم الساعة حتى تكلم السباعُ الإنسَ، وحتى تكلم الرجلَ عذبةُ سوطِه، وشراكُ نعلِه، ويُخبره فخذُه بما فعلَه أهلُه بعده»[3].

وإذا كان هذا فقد أوشكت الدنيا أن تنتهى، ولذلك فإن العلامة العاشرة من

(١) صحيح: رواه م (٢٩٤٧/٢٢٦٧/٤)، جه (٤٠٥٦/١٣٤٨/٢).

(٢) صحيح: رواه م (٢٩٤١/ ٢٢٦٠/٤)، د (٤٢٨٨/٤٢٤/١١)، جه (٤٠٦٩/ ١٣٥٣/١).

(٣) حسن صحيح: رواه ت (٢٢٧٢/ ٣٢٢/٣).

علامات الســاعة الكبرى: أن يرسل الله تبارك وتعالى ريحــاً بادرة طيبة[١] من جهة الشام أو اليــمن فتقــبض روح كل عبد مـؤمن، حتى إنه لو دخل جـبلاً لدخلت خلفه حتى تقــبضه، ولكن هذه العلامــة خفية غيــر ظاهرة، فإن الناس يموتون كل يوم، فإذا مات المؤمنون فى آخر الزمان بتلك الــريح الطيبة لا يكون فى موتهم أمر ظاهر يدل على قرب النفخ فى الصور، إلا أن الناس يصبحون فيقول أحدهم: مات فلان ويقول الآخر: ومات فلان، فيعدّون رجالاً كثيرين ماتوا فى اليوم الواحد.

ولا يبــقى فى الأرض إلا شــرارُ أهلها، فــلا يَعْرفــون مــعروفــاً، ولا يُنْكِرون مُنْكرًا، ولا يذكــرون الله تعالى، فــعلى هؤلاء تقــوم الساعــة، قال ﷺ «لا تقــوم الساعة إلا على شرار الخلق»[٢].

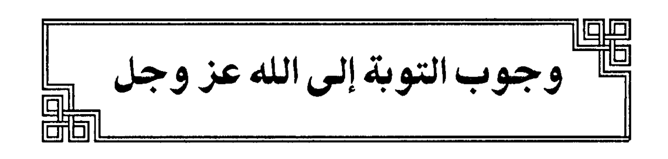
إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

* * *

---

(١) صحيح: رواه م (١١٧/١٠٩/١).

(٢) صحيح: رواه م (١٩٢٤/١٥٢٤/٣).



وجوب التوبة إلى الله عز وجل

﴿اقتـرب للناس حسـابهم وهم فى غفلة مـعرضـون * ما يأتيهـم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم﴾ [الأنبياء: ١، ٢، ٣]. **﴿أفلا يتوبون إلى اللّه ويستغفرونه ، واللّه غفور رحيم﴾** [المائدة: ٧٤].

تحدثنا عن عـلامات الساعة الصغـرى والكبرى، ورأينا من خلالهـا أن الساعة أصبحت قاب قوسين أو أدنى. فماذا يجب على الناس؟

إن الواجب على العاقل أن يـبادر بالتوبة إلى الله تبـارك وتعالى، إن الواجب على العاقل ألا يغـتّر بشبابه، وألا يغتـرّ بصحّته، وألا يغتـرّ بجاهه وسلطانه، وألا يغترّ بمـاله، فعمّا قريب يقف بين يدى ربه وحـيدًا فردًا، لا مال مـعه ولا جاه ولا سلطان، **﴿ولقد جئتـمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة، وتركـتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم﴾** [الأنعام: ٩٤].

إن التوبة إلى الله واجـبة لأن الله أمر بها، والأمـر للإيجاب كمـا هو معلوم، قال تعالى: **﴿وتوبوا إلى اللّه جـميـعاً أيهـا المؤمنون لعلكم تفلحـون﴾** [النور: ٣١]. وقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى اللّه توبة نصوحًا﴾** [التحريم: ٨]. وجعل الله غير التائب ظالمًا، فقال تعالى: **﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾** [الحجرات: ١١].

وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة»[1].

فإذا كان وهو رسـول الله يتوب فى اليوم مائة مـرة فما بالك بغيـره؟ إن غيره أولى بكثرة الاستغفار.

---

(١) صحيح: رواه م (٢٧٠٢ - ٤٢ - / ٢٠٧٥ و ٢٠٧٦/ ٤).

إن الله عزّ وجلّ قد خلق الخلق وعلم ما انطوت عليه صدورهم، وعلم ما جَبَلَهُمْ عليه، والله تبارك وتعالى لم يجعل العصمة إلا للأنبياء، فكل ابن آدم خطّاء، إلا الأنبياء فإنهم معصومون أن يقعوا فيما حرّم الله أو أن يتركوا ما فرض الله. فعلى العبد المسلم إذا أذنب ذنباً أن يبادر بالتوبة إلى الله، ولا يقنط من رحمة الله مهما عظم ذنبه، وكثرت معاصيه، عليه أن يعلم أن علاقة الله بعباده علاقة تقوم على الرحمة، «خلق الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل جزءاً واحدًا إلى الأرض، فبه يتراحم العباد، حتى إن الدابة لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[1]. ﴿**قل لمن ما فى السموات والأرض؟ قل للَّه، كتب على نفسه الرحمة**﴾ [الأنعام: ١٢].

يقول الرسول ﷺ: «إن الله تعالى كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى سبقت غضبى»[2].

إن الله عزّ وجلّ واسع المغفرة، ورحمته وسعت كل شىء، وهو سبحانه أرحم بالأبناء من الآباء، ولذلك وصى الآباء بأبنائهم، فقال تعالى: ﴿**يوصيكم اللَّه فى أولادكم**﴾ [النساء: ١٣]. وهو سبحانه أرحم بالإنسان من نفسه، ولذلك نهى الله عزّ وجلّ الإنسان عن أن يضرّ نفسه أو يؤذيها، فقال تعالى: ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم، إن اللَّه كان بكم رحيما**﴾ [النساء: ٢٩].

فعلى الإنسان إذا بدرت منه بادرة، أو زلّت به قدم فوقع فيما حرّم الله عليه، أو قصّر فيما أمره الله به أن يبادر بالتوبة والإنابة والاستغفار، فإذا ما استغفر غفر الله له.

---

(١) متفق عليه: رواه خ (١٠/ ٤٣١/ ٦٠٠٠)، م (٤/ ٢١٠٨/ ٢٧٥٢)، جه (٢/ ١٤٣٥/ ٤٢٩٣)، ت (٥/ ٢٠٩/ ٣٦١٠) مختصراً.

(٢) متفق عليه: رواه خ (١٣/ ٣٨٤/ ٧٤٠٤)، م (٤/ ٢١٠٧/ ٢٧٥١)، ت (٥/ ٢٠٩/ ٣٦١١) بنحوه.

إن رجالاً زَيَّنَ لهم الشيطان سوء أعمالهم فصدّهم عن السبيل، فقصَّروا فى الواجبات، وارتكبوا المحرمات، وطال عليهم الأمَدُ فَقَسَتْ قلوبهم، إن رجالاً هذا حالهم أحياناً تستيقظ ضمائرهم، ويفيقون من غفلتهم، فيهمُّون بالتوبة والإنابة إلى الله، فيأتى الشيطانُ أحدَهم ويقول له: إن إبليس قد طرد من رحمة الله لأنه ترك سجدة واحدة، فما بالك عشت سنين طوالاً تاركاً للصلاة، مرتكباً للفواحش، والآن تريد أن يغفر الله لك، هيهات هيهات، فيُقْعده عن التوبة بعد أن هَمَّ بها.

فعلى هؤلاء أن يعلموا أن هذا الذى يجدونه فى صدورهم من الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس، فعليهم أن يردوا كيده فى نحره، وأن يعلموا أنه ليس هناك ذنب لا يُغفر إذا تاب صاحبه.

إن الله عزّ وجلّ قد عرض التوبة على الكافرين فقال تعالى: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن اللَّه هو المسيح ابن مريم...**﴾، ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن اللَّه ثالث ثلاثة**﴾، ثم حثهم على التوبة ورغَّبَهم فيها فقال: ﴿**أفلا يتوبون إلى اللَّه ويستغفرونه، واللَّه غفور رحيم**﴾[المائدة: ٧٢ - ٧٤].

إن رجالاً من المشركين جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، إن ما تدعو إليه لَحَسَنٌ وجميل، ولكن هلا أخبرتنا أن لما فعلناه فى الماضى توبة ومغفرة، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿**والذين لا يدعون مع اللَّه إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التى حرّم اللَّه إلا بالحق، ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يَلْقَ أثاما * يُضَاعَف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا * إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل اللَّه سيئاتهم حسنات، وكان اللَّه غفوراً رحيما**﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]. قال رسول الله ﷺ: «إنى لأعلم آخرَ أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخرَ أهل النار خروجاً منها، رجل يُؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتُعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملتَ يوم كذا، كذا وكذا، وعملتَ

يوم كذا، كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تُعْرَض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئةٍ حسنةً، فيقول: ربٌّ، قد عملتُ أشياء لا أراها ههنا»، قال أبو ذرّ راوى الحديث: وقد رأيت رسول الله ضحك حتى بدت نواجذه[1].

إن رحمة الله واسعة، والله تبارك وتعالى يعامل عباده بمقتضى الرحمة، إن عملوا حسنة ضاعف لهم أجرها، وإن عملوا سيئة كتبها عليهم سيئة واحدة، ولايعجل لهم العذاب، بل يمهلهم لعلهم يتوبون ويستغفرون فيغفر لهم **﴿وربك الغفور ذو الرحمة، لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجَّل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه مَوْئلا﴾** [الكهف: ٥٨].

يا عباد الله: إن ربكم عزّ وجلّ يفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه، فهلا تجعلون ربكم يفرح بكم؟ إن الله عزّ وجلّ يفرح بالتائب حين يتوب إليه فرحاً شديداً، قال رسول الله ﷺ: «للهُ أشدّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرضٍ فلاةٍ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فَأيسَ منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلّها وقد أيِسَ من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدى وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»[2].

ولا يخفى على أحدٍ خبرُ قاتل المائة الذى تاب إلى الله فتاب الله عليه، ودخل الجنة مع أنه مات قبل أن يفعل أى خير بعد توبته، عن أبى سعيد الخدرى، أن نبى الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم، رجل قَتَلَ تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض

---

(١) صحيح: رواه م (١٩٠/١٧٧/١)، ت (٢٧٢٣/١١٢ و ١١٣/٤).

(٢) صحيح: رواه م (٢٧٤٧/٢١٠٤/٤).

فدلَّ على رجل عالم، فـقال: إنه قتل مائة نفسه، فـهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبدِ الله معــهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق، حتى إذا نصف الطريقُ أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقـبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعــمل خيــراً قط، فأتاهم مَلَك فى صــورة آدمى، فجـعلوه بينهم ـ أى حكَمًا ـ فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهــما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة»[١].

فيا عــباد الله أنيبوا إلى ربكم وأسلمــوا له، استغفروا ربكــم وتوبوا إليه، فإن الاستغفار سبب للخيرات والبركات وتوسيع الأرزاق.

قال الله تعالى على لســان محمد ﷺ: **﴿وأن استغـفروا ربكم، ثُم تُوبوا إليه، يُمَتعكُم مَتاعاً حَسَناً إلى أجلٍ مُسمّى، ويؤتِ كل ذى فضلٍ فضله﴾** [هود: ٣].

وقال علــى لسان هود عليــه السلام: **﴿ويا قوم اسـتغفـروا ربكم ثم توبوا إليه يُرسل السماء عليكم مدراراً، ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾** [هود: ٥٢].

وقال على لسان نــوح عليه السلام: **﴿فقلت اسـتغفروا ربكـم إنه كـان غفّارا، يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهارا﴾** [نوح: ١٠ - ١٢].

فتوبوا إلى الله واســتغفروه قبل أن يأتى أحدَكم الموتُ، فـإن الموت يأتى بغتة، وإذا عَايَنَ الرجلُ مــلائكة الموت أُغلق دونه باب الــتوبة، قــال ﷺ: «إن الله عــزّ وجلّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[٢].

---

(١) متفق عليه: رواه م (٢٧٦٦/٢١١٨/ ٤) واللفظ له، خ (٣٤٧٠/ ٥١٢/ ٦) بنحوه.

(٢) حسن: رواه ت (٣٦٠٣/ ٢٠٦ و ٢٠٧/ ٥)، جه (٤٢٥٣/ ١٤٢٠/ ٢).

وقال ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»[1].

واعلموا عباد الله أن التوبة النصوح التى يكفّر الله بها السيئات ويحط بها الخطايا لها شروط:

الأول: الإقلاع عن الذنب، فليس بمستغفرٍ مَنْ يقول: اللهم اغفر لى، وهو مُصِرٌ على الذنب مُتَلَبِّسٌ به.

الثانى: الندم على ما فات.

الثالث: أن تعزم على أن لا تعود إلى الذنب الذى تُبْتَ منه أبداً.

وهذه الشروط فيما إذا كان الذنب بينك وبين ربك، فأما إذا كان الذنب الذى تريد أن تتوب منه فيه حقوق تتعلق بالعباد فيضاف إلى هذه الثلاثة شرط رابع: وهو أن تردّ الحقوق إلى أهلها ما استطعت، فإذا علمت أنه يترتب على إعلام مَنْ ظلمتَهم ضرر ومفسدة فما عليك إلا أن تجعل التوبة بينك وبين الله وتكثر من الحسنات حتى يستردوا منك حقوقهم يوم القيامة، فإنه لا يدخل رجلٌ من أهل الجنةِ الجنةَ وعنده لرجلٍ من أهل النار مَظْلمةٌ، كما أنه لا يدخل أحدٌ من أهل النارِ النارَ وعنده لرجل من أهل الجنة مظلمة، ولذا قال ﷺ: «أتدرون من المُفلس؟» قالوا: المُفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال ﷺ: «المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعْطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقْضى ما عليه أُخِذَ من سيئاتهم فطُرِحَتْ عليه ثم طُرِحَ فى النار»[2].

اللهم إنَّا نستغفرك فاغفر لنا، ونتوب إليك فَتُبْ علينا، إنك أنت التواب الرحيم.

* * *

(١) صحيح: رواه م (٢٧٠٣/ ٢٠٧٦/ ٤).

(٢) صحيح: رواه م (٢٥٨١/ ١٩٩٧/ ٤)، ت (٢٥٣٣/ ٣٦/ ٤).

وجوب الإيمان باليوم الآخر

تحدثنا فيما مضى عن علامات الساعة الصغرى والكبرى، وانتهى بنا الحديث إلى ما ذكرناه من أن الساعة لا تقوم إلا على شِرَارِ الخلق، وذلك أن الله تعالى إذا أراد أن يفنى العالَم ويبيده أرسل فى آخر الزمان ريحاً باردة طيبة تقبض روح كل عبد مؤمن، حتى لو أن مؤمناً دخل جحراً لدخلت خلفه حتى تقبضه، ويبقى فى الأرض شِرار أهلها، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فعلى هؤلاء تقوم الساعة.

فكيف تقوم الساعة؟ وماذا يصحبها من الأهوال والكروب؟ وماذا يكون بعد أن يقوم الناس من قبورهم كأنهم إلى نُصُبٍ يوفضون؟ وما هى المراحل التى يمرون بها حتى يتبوَّأ أهلُ الجنة منازلَهم فى الجنة، وأهلُ النار منازلَهم فى النار؟

كل هذه الأمور من العقيدة التى يجب أن يهتمّ المسلم بمعرفتها بالدليل الواضح، ليلقى الله تعالى مستعداً للقائه فيفوز برضوان الله، والجنة.

ولكن قبل أن نأخذ فى سرد الوقائع والأحداث التى تكون منذ النفخة الأولى إلى نهاية المطاف، حيث يسكن أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، قبل أن نأخذ فى سرد هذا كله ينبغى أن نتكلم أولاً عن الإيمان باليوم الآخر، ما حكمه، وما حكم منكرِه؟ فنقول وبالله التوفيق:

إن الإيمانَ باليوم الآخر ركنٌ من أهم أركان الإيمان، فكما تعلمون أن للإيمان أركاناً ستة، قد ذكرها رسول الله ﷺ فى حديث جبريل حين سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، فكان جوابه ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه،

ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه»[١].

ومن أهم هذه الأركـان الإيمان باليوم الآخـر، ولذلك فإنك إذا قـرأت القرآن الكريم وجدت الله عـزّ وجلّ يجمع بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر فـى أكثر من موضع:

يقول الله تعالى: ﴿**ليس البـر أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن باللَّه واليوم الآخر....**﴾ [البقرة: ١٧٧].

ويقول الله تعالى: ﴿**ومن يكفر باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً**﴾.

وليس المراد مَنْ كفر بجملة هذه الأركان جميعها، بل المراد أنّ مَنْ كفر بواحد منها فقـد ضل ضلالاً بعيداً، ولذلك قـال الله تعالى فى آية أخرى: ﴿**وإن تعجبْ فـعـجبٌ قـولهم: أئذا كنا ترابا أئنا لفـى خلق جـديد، أولئك الذين كـفـروا بربهم، وأولئك الأغلال فى أعناقهم، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ [الرعد: ٥].

فحكـم الله تبارك وتعالى عـلى الذين أنكروا البعث بعـد الموت، وعجـبوا أن يحيـيهم الله تعـالى بعد ما تُبلى أجـسادهم وتصـير ترابا، حكَمَ اللهُ عليـهم بثلاثة أحكام جزاءَ قولهم: ﴿**أئذا كنا ترابا أئِنَّا لفى خلق جديد**﴾.

أما الحكم الأول، فقـوله تعالى: ﴿**أولئك الذين كفروا بربهم**﴾ وتأمّل كيف جعل الكفر بالبعث كفراً بالرب.

والحكم الثانى: ﴿**وأولئك الأغلال فى أعناقهم**﴾.

والحكم الثالث: ﴿**وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾.

إن هذه الدنيا ليسـت بدار قرار، وإنما هى ممر وليست بمستقـرّ، وإنما نعيش فى

---

(١) صحيح: رواه م (٨/ ٣٦/ ١)، ت (٢٧٣٨/ ١١٩/ ٤)، جـــه (٦٣/ ٢٤/ ١)، د (٤٦٧٠/ ٤٥٩/ ١٢)، نس (٨/ ٩٧).

هذه الدنيا لنؤدى وظيفة أرادها الله تعـالى منّا، ووجودنا فى هذه الحياة إنما هو إلى أجل مسمى ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ [الأعراف: ٣٤].

ولهذا أعْلَمَ اللهُ تعالى أبا البشر آدم منذ اللـحظة الأولى التى أمره فيها بالنزول إلى الأرض أن نزوله إليها ليس للاستقرار عليهـا ولا للخلود فيها وإنما هو استقرار مؤقّت بوقت ينتهى إليه، قال الله تعالى: ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ، ولكم فى الأرض مـسـتقـرّ ومـتاع إلى حـين * قال فـيـها تحـيـون، وفـيـها تموتون ومنهـا تُخْرَجون﴾ [الأعراف: ٢٤، ٢٥].

ولكن لما طال الأمـد على البشـر قست قلوبهم، ونسـوا هذا الذى ذُكِّروا به، فقـال بعضهم: لا بعث ولا حـساب ولا جزاء، ولا جنة ولا نار، وإنما هى حـياتنا الدنيـا نموت ونحيا، ومـا نحن بمبعـوثين. وفى هؤلاء وأمثـالهم يقول الله تـعالى: ﴿ويقول الإنسـان أئذا ما متُّ لسوف أُخْرَجُ حيًا؟ أوَ لا يذكـر الإنسان أنَّا خلقناه من قبل ولـم يَكُ شـيئاً﴾، ثم يُقْسِم ربنا عـزّ وجلّ بنفسـه على وقـوع البعث والجـزاء فيقول: ﴿فَوربِّكَ لنحـشُرَنّهم والشـياطينَ، ثم لـنحضرنّهم حـول جـهنم جثيًا * ثم لَنَنزعَنَّ من كل شيعة أيهم أشدُ عـلى الرحمن عتيا * ثم لنحن أعلمُ بالذين هم أولى بهـا صليـا * وإن منكم إلا واردُهَا كـان على ربك حَتـمًا مَقـضيًا * ثم نُنَجى الذين اتقوا ونَذَرُ الظالمين فيها جثيًّا﴾ [مريم: ٦٨ - ٧٢].

فأقسم الله تبارك وتعالى بنفـسه، وهذا هو أشرف قسم وأعظم قسم من الرب عزّ وجلّ، أن يقسم بذاته ﴿فوربك...﴾. وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم أيضاً بربّه على ما أقسم الله عليـه، فقال تعالى: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يُبْعَثوا، قل: بلى وربى لتُبعثنّ ثم لتنبؤنّ بما عملتم وذلك على اللّه يسير﴾ [التغابن: ٧]، ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا السـاعة، قل: بلى وربى لتأتينّكم﴾ [سبأ: ٣]، ﴿ويستنبئونك أحَقٌ هو؟ قل: إى وربى إنه لحقّ﴾ [يونس: ٥٣].

فإذا أقسم الله بذاته على وقوع البعث والجزاء، وأقسم الرسول ﷺ بربه على وقوع البعث والجزاء، أبَعْد هذا القسم العظيم من الله ورسوله يجرؤ متجرِّىء على الله ويقول: لا بعث ولا حساب ولا جزاء. وهل حق هذا وأمثاله على الله إلا أن يكبهم فى النار على وجوههم ﴿جزاءً وفاقاً﴾ [النبأ: ٢٦].

إن المتأمل فى آيات القرآن الكريم يجد من البراهين والأدلة على إثبات وقوع البعث والجزاء الشىء الكثير والكثير المتنوع:

فمنها: أن الله عزّ وجلّ قد خلق الخلق بعد عدم، وإذا خلقهم من عدم للمرة الأولى فإنه لا يعجز أن يعيدهم مرة ثانية، لأن الإعادة أهون من البدء، قال تعالى: **﴿وهو الذى يَبدَأ الخلق ثم يُعيدُه وهو أهونُ عليه، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم﴾** [الروم: ٢٧]. ولا يفهمنّ فاهم من هذه الآية أن هناك شيئاً هيِّنًا على الله، وهناك شيئاً أهون، لا، ليس هناك شىء يسير، وشىء أيسر، ليس هناك بسيط وأبسط، فإن الله لا يخلق بآلة: **﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾**. وإنما هو مثل ذكره الله عزّ وجلّ لعباده ليبين لهم أن الذى خلقهم من عدم قادر على أن يعيدهم مرة ثانية، وفى هذا يقول الله تعالى: **﴿أوَلَم يرَ الإنسان أنَّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونَسِىَ خلقه قال من يُحيى العظامَ وهى رَميم؟ قل يُحييها الذى أنشأها أول مرةٍ وهو بكل خلق عليم﴾** [يس: ٧٧ - ٧٩].

ومنها: أن الناس يموتون ثم يبعثون فى اليوم والليلة مرة أو مرتين، أليس الإنسان ينام، والنومُ موتةٌ صغرى، أنت حين تنام تفقد وَعْيَك، تفقد إدراكك، تفقد حواسّك كلها، لا تشعر بأى شىء من حولك، وهذا هو الموت بعينه، ولذا فإن الله سمى النوم وفاة، فقال تعالى: **﴿وهو الذى يَتَوفَاكُم بالليل، ويعلم ما جَرَحتُم بالنهار، ثم يَبعَثُكُم فيه لِيُقضىَ أَجَلٌ مسمى﴾** [الأنعام: ٦٠].

ومن هنا كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه يقول: «باسمك ربى وضعت جَنبى وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[١].

وكان ﷺ إذا استيقظ من نومه يقول: «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[٢]، «الحمد لله الذى عافانى فى جسدى، ورَدَّ علىَّ روحى، وأذِنَ لى بذكره»[٣].

فها أنت أيها الإنسان تموت كل ليلة ثم يبعثك الله، فما الفرق بين بعثك من نومك وبعثك من موتك؟

ثم إن هناك رِجَالاً قد ماتوا بالفعل ثم أحياهم الله تعالى فى هذه الدنيا لحكمة، وليس ذلك أمراً مطَّردًا، إنما كان ذلك فى الزمن الماضى معجزة أراد الله أن يظهرها على يد أنبيائه، وما قتيل بنى إسرائيل منكم ببعيد، **﴿وإذ قَتَلْتُم نفسًا فادَّارَأتم فيها، واللَّه مُخْرِج ما كنتم تكتمون * فَقُلْنا اضرِبُوهُ بِبَعضِهَا، كذلك يُحيى اللَّه الموتى، ويُريكُم آياته لعلكُم تعقلُون﴾** [البقرة: ٧٢، ٧٣].

كان رجل من بنى إسرائيل غنياً، وكان لا وارث له إلا ابن أخيه، فاستعجل ابنُ أخيه موتَه ليرثه فقتله، ثم أصبح يطلب قاتلَ عمه، وكاد الحيّان أن يقتتلا، ثم ذهبوا إلى موسى عليه السلام يطلبون منه أن يسأل ربّه عن القاتل، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة، وأن يضربوا القتيل ببعضها، ففعلوا، فأحيا الله القتيل، فسأله موسى: مَنْ قتلك؟ قال: فلانٌ هذا، ابن أخى قتلنى ليرثنى، ثم أماته الله مرة ثانية.

وقال تعالى: **﴿أو كالذى مَرَّ على قَريةٍ وهى خَاويةٌ على عُرُوشِهـا، قال أنَّى**

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٦٣٢٠/ ١٢٥ و ١٢٦/ ١١) ، م (٢٧١٤/ ٢٠٨٤/ ٤) ، د (٥٠٢٩/ ٣٩١/ ١٣) ، ت (٣٤٦١/ ١٣٩/ ٥).

(٢) صحيح: رواه خ (٦٣١٢/ ١١٣/ ١١)، ت (٣٤٧٧/ ١٤٦/ ٥)، د (٥٠٢٨/ ٣٩١/ ١٣).

(٣) حسن: رواه ت (٣٤٦١/ ١٣٩/ ٥).

يُحيى هذه اللَّهُ بعد مَوتِهَا؟ فـأمَاتَهُ اللَّه مائَةَ عامٍ ثم بَعَثَه قال كم لبثت قـال لَبثتُ يوماً أو بعض يوم قال بل لبثتَ مائةَ عامٍ فـانظر إلى طعامك وشرابكَ لم يَتَسَنَّه وانظر إلى حمارِكَ ولنجعلـك آيةً للناسِ وانظر إلى العظام كيف نُنشِزُها ثم نكسوها لحـماً فلما تبين له قـال أعلمُ أن اللَّه عـلى كل شيء قـدير * وإذ قـال إبراهيم رب أرنى كـيف تُحي الموتى قال أو لم تؤمن قـال بلى ولكن ليطمئن قلبى قـال فخذ أربعـةً من الطيرِ فَصُرهُنَّ إليك ثم اجعل على كل جبلٍ منهن جـزءا ثم ادعُهُنَّ يأتينكَ سعيًا واعلم أن اللَّه عزيز حكيم﴾ [البقرة: ٢٥٩، ٢٦٠].

ومنها: أن الله تعالى خلق من الخلقِ ما هو أكبر من الإنسان وأشد قوة، خلق الله السموات والأرض، وخَلْقُها أكبرُ مِنْ خلق الإنسان **﴿أأنتم أشَدُّ خلقاً أم السماء بَنَاهَا﴾** [النازعات: ٢٧].

﴿لخلق السمواتِ والأرضِ أكبَرُ من خَلقِ النَّاسِ، ولكن أكثر النَّاسِ لا يعلمون﴾ [غافر: ٥٧].

فإذا كان ذلك كذلك **﴿أولَم يروا أن اللَّه الذى خلق السـموات والأرض ولم يَعْىَ بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى، بلى إنه على كل شيء قدير﴾** [الأحقاف: ٣٣].

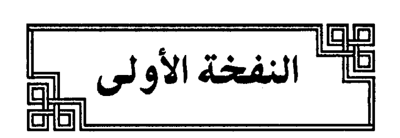
ومنها: أن الله تعالى يحيى الأرض بعد موتها بالماء ينزله من السماء، وفى ذلك إشارة إلى أنه كـما يحيى الأرض بعد مـوتها، كذلك يحيى الله تعـالى الموتى، قال تعالى: **﴿وترى الأرض هَامدَة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وَرَبَتْ، وأنبتت من كل زَوجٍ بهيج * ذلك بأن اللَّه هو الحق، وأنه يحـيى الموتى، وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن اللَّه يبعث من فى القبور﴾** [الحج: ٥ - ٧].

فيا عباد الله: إن الإيمان باليوم الآخر من أهمّ أركان الإيمان بعد الإيمان بالله عزّ وجلّ، ومنكرُ البعث كـافرٌ، خالد مـخلد فى النار لا يخرج منهـا أبداً، فآمنُوا بالله ورسوله، وملائكته، وكتبه، وآمِنوا بالقـدر، وآمنوا باليوم الآخر، واستعدوا للقاء

الله ﴿يا أيها الـذين آمنوا اتقوا اللَّه ولتَنظُر نَفسٌ مـا قدمت لغد، واتـقوا اللَّه إن اللَّه خـبيـر بما تعـملون * ولا تكونوا كـالذين نَسُوا اللَّه فـأنساهم أنفـسـهم، أولئك هم الفـاسـقـون * لا يسـتوى أصـحـاب النار وأصـحـاب الجنة، أصـحـاب الجنة هم الفائزون﴾ [الحشر: ١٨ - ٢٠].

أسأل الله أن يجعلنى وإياكم من الفائزين.

* * *



النفخة الأولى

﴿يا أيهـا الناس اتقوا ربكم، إن زلزلة السـاعة شيء عظيم * يوم ترونهـا تذهل كل مرضـعة عما أرضـعت، وتضع كل ذات حمل حـملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد﴾ [الحج: ١].

تكلمنا فـيما سـبق عن علامات السـاعة الصغـرى والكبرى، ثم خـتمنا ذلك بالحديث عن وجوب الإيمان باليوم الآخـر، وقلنا: إن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، فمن كفر باليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً.

وها نحن نريد أن نوضح بالتفـصيل: كيف تقوم الساعـة؟ وكيف يقوم الناس من قبورهم لربّ العالمين حفاة عراة غُرْلا؟ وكيف يُحشر المؤمنون إلى ربهم؟ وكيف يساق المجـرمون على وجوههم إلى جهنم؟ وكـيف يتم الحساب؟ وكيف يـعرضون على الله عزّ وجلّ؟ ثم نختم ذلك كله إن شـاء الله بالحديث عن نعيم الجنة ـ نسأل الله أن يجعلنا من أهلها ـ وبالحديث عـما فى النار من عذاب وآلام ـ نعوذ بالله أن يجعلنا من أهل النار ـ.

قلنا فيمـا سبق: «إن الله تبارك وتعالى يرسل فى آخر الزمان ريحـاً طيبة باردة تقـبض روح كل عبـد مـؤمن، ويبقى فى الأرض شـرار الخلق، فى خـفة الطيـر وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيـبون؟ فيقولون: وما تأمرنا؟ فيـأمرهم بعبادة الأوثان، وهم فى ذلك دارٌ رزقُهم، حَسَنٌ عيشُهم»[١]، فعلى هؤلاء تقوم الساعة، يقول الرسول ﷺ: «إن من

---

(١) صحيح: رواه م (٢٩٤٠/٢٢٥٨/٤).

شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء»[١].

فبينما هؤلاء الناس فى أسواقهم إذ نُفِخَ فى الصور، والصور قرن خلقه الله تعالى للنفختين: نفخة الإماتة، ونفخة البعث، ووكَّلَ اللهُ تعالى بهذا الصور مَلَكًا مِنَ الملائكة وهو إسرافيل.

وقد جاء ذكر الصور فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع:

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام: **﴿وأن أقيموا الصلاة واتقوه، وهو الذى إليه تحشرون * وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون * قوله الحق، وله الملك يوم ينفخ فى الصور...﴾** [الأنعام: ٧٣].

ويقول تعالى فى سورة المؤمنون: **﴿فإذا نفخ فى الصور فلا أنسابَ بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾** [المؤمنون: ١٠١].

ويقول تعالى فى سورة الزمر: **﴿ونُفِخَ فى الصُّور فَصَعِقَ من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء اللَّه، ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هُم قِيامٌ ينظرون﴾** [الزمر: ٦٨].

كما أن الصور قد جاء ذكره فى أحاديث النبى ﷺ:

منها: قوله ﷺ: «كيف أنعَم وصاحب الصُّورِ قد التقم الصُّورَ، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر متى يؤمر بالنفخ فينفخ»[٢].

فإذا أراد الله تعالى فناءَ هذا العالم وبدايةَ اليوم الآخر أذِنَ لإسرافيل بالنفخ فى الصور، فينفخ عليه السلام والناسُ فى أسواقهم، قد نَشَرَ الرجلان بينهما ثوبَهما، وقد رفع الرجل لقمته إلى فِيه، وقد حلب الرجل ناقته ورجع بلبنها، فلا يتبايع المتبايعان، ولا يأكل الآكل، ولا يشرب الحالب[٣].

---

(١) **صحيح**: خز (١/ ٩٢/ ٢)، حب (٣٤٠ و٣٤١).

(٢) **صحيح**: رواه ت (٢٥٤٨/ ٤٢/ ٤).

(٣) **صحيح**: رواه م (٢٩٥٤/ ٢٢٧٠/ ٤).

بينما الناس فى أسـواقهم إذ نفخ فى الصور ففزع من فـى السموات ومن فى الأرض، وبهذه النفخة تتفطّر السماء، وتزول الجـبال، وتتأجج البحار ناراً موقدة، وتتناثر الكواكب، وتنزل الوحوش من الغابات إلى الأرض السهلة، وكل هذه المشاهد قد ذكرها الله تعالى فى سـور ثلاث: قال عنها رسول الله ﷺ: «من سَرَّه أن ينظر إلى يوم القيـامة كأنه رأىَ عَيْن فليـقرأ: ﴿**إذا الشمس كوِّرَت**﴾، و ﴿**إذا السماء انفطرت**﴾، و ﴿**إذا السماء انشقت**﴾[1].

فـفى هذه السـور الثـلاث ذَكَرَ اللهُ تعالى مـا تُحْدِثُه هذه النفـخـةُ الأولى من الأهوال والأفزاع التى يتغير لها هذا العالم العلوىّ والسفلىّ. نفخةٌ واحدة يتغير بها هذا الكون كلّه، وتنفكّ رابطة هذا العالم الكونى التى يرتبط بهـا الآن، فبينما تراه بناءً دقيـقاً محكماً، لا خلل فـيه ولا فطور، إذا بك تراه يوم القيامـة وقد تفطرت السمـاء، وتناثرت الكواكب، وزالت الجـبال ﴿**فإذا انشـقَّت السمـاء فكانت وَرَدَةً كالدّهان**﴾ [الرحـمن: ٣٧]، ﴿**فكيف تتـقون إن كـفرتم يـومًا يجعل الولدان شـيبـا * السماء منفطرٌ به، كان وعده مفعولاً**﴾ [المزمل: ١٧، ١٨].

﴿**ويسئلونك عن الجبال فـقل يَنسفُها ربى نَسفًا، فَيَذرُهَا قاعًا صَفصَفًا * لا ترى فيها عوَجًا ولا أمْتًا**﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

حين يعاين الناس هذه الزلازل وهذه المشاهد ﴿**يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ؟**﴾ [القيامة: ١٠]، يهرب يميناً فلا يجـد ملجأ، ويهرب شمالاً فـلا يجد ملجأ، ﴿**كلا، لا وَزَرْ. إلى ربك يومئذ المستقر**﴾ [القيامة: ١١ - ١٢].

تختلط الوحوش بالإنس، ويجـتمع الجن والإنس، وتقول الجن: نحن نأتيكم بالخبـر، فيتوجّهون إلى الـبحار فيجـدونها ناراً موقـدة، فيعودون محـاولين الهربَ والفرارَ فـتضربهم الملائكـة فتردّهم على أعـقابهم، ﴿**فـإذا نفخ فى الصـور نفخـة**

---

(١) صحيح: رواه م (٣٣٨٩/ ١٠٤/٥).

واحدة، وحُمِلَت الأرض والجبال فدُكَّتا دكة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة * وانشقت السماء فهى يومئذ واهية * والملك على أرجائها﴾ [الحاقة: ١٣-١٧] أى على أطرافها يضربون كل من يحاول الفرار، حيث لا مفر: أين المفرّ والإله الطالب؟ **﴿إلى ربك يومئذ المستقرّ﴾**.

حينئذ تضع كلُّ ذات حمل حملها ولابد، لأن الحامل إذا فزعت قد يسقط حملها، إذا أفزعها أمر صغير، فكيف وقد رأت السماء انفطرت، والكواكب انتثرت، والجبال سُيِّرَتْ، والبحار سُجِّرَتْ، لابد قطعاً أن تضع كل ذات حمل حملها، وتفر المرضع من رضيعها، تبحث عن ملجأ تلجأ إليه، فليس الوقت وقت انشغال بغير النفس، ولو كان ذلك الغير ولداً، **﴿يوم يفرّ المرءُ من أخيه، وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾** [عبس: ٣٤ - ٣٧].

﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾ [الحج: ٢]، ترى الناس فى هيئة السكران الحيران المذهول الذى لا يعرف ما يدور حوله، تراهم سكارى، وما هم بسكارى حقيقة، وإنما نتيجة الرعب الذى سكن قلوبهم، والفزع الذى ملأ أفئدتهم **﴿ولا تحسَبَنَّ اللَّه غافلاً عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار. مهطعين مُقنِعِى رُءُوسِهِم لا يرتَدُّ إليهم طرفُهُم، وأفئدَتُهُم هواء﴾** [إبراهيم: ٤٢، ٤٣]، وأفئدتهم هواء، خالية من القلوب، لأن القلوب من شدة الخوف قد انخلعت من أفئدتها حتى بلغت الحناجر **﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لَدَى الحناجِرِ كاظمين﴾** [غافر: ١٨].

هذا هو التغير الكونى الذى تحدثه النفخة الأولى فى الصور، والناس يشاهدون هذا التغيّر ولا يعلمون ما وراءه. ويطيل إسرافيل عليه السلام هذه النفخة حتى تحدث كل هذه الانقلابات، ثم يقع الناس موتى فلا يبقى منهم أحد، قال تعالى: **﴿كل مَنْ عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾** [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

ويموت أيضاً مَنْ فى السموات إلا مَنْ استثنى الله فى قوله: **﴿ونفخ فى الصور فصعق مَنْ فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء اللَّه﴾** [الزمر: ٦٨]، ومنهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يأمر اللهُ ملكَ الموت بقبضِ أرواح من بقى من الملائكة حتى جبريل وميكائيل، وأخيراً يأمر الله تعالى ملك الموت أن يقبض روحه بنفسه، فيموت ملك الموت، وينفرد المالك بملكه كما كان قبل أن يخلق خلقه **﴿قوله الحق، وله الملك يوم ينفخ فى الصور﴾** [الأنعام: ٧٣]، وينادى سبحانه: **﴿لمن الملك اليوم؟﴾** [غافر: ١٦]، من يجيب وقد مات الجميع؟ من يَرُدُّ وقد هلك الجميع، أهل السموات وأهل الأرض **﴿كل شىء هالك إلا وجهه﴾** [القصص: ٨٨]، **﴿لمن الملك اليوم؟﴾** لا أحد يجيب، فيجيب المالك: **﴿للَّه الواحد القهّار﴾**.

عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوى الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك: أين الجبارون؟ أين المتكبّرون؟ ثم يطوى الأرَضين بشماله ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»[1]. «أنا الملك» لا مَلِكَ إلا الله، ولا مالك إلا الله، وكل ما سوى الله عبد مربوب لله **﴿إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعَدَّهُم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾**[مريم: ٩٣ - ٩٥].

يترك الله تعالى الخلق أمواتاً أربعين، أربعين سنة! أربعين شهراً! أربعين يوماً! لا ندرى، ففى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون». قيل لأبى هريرة: يا أبا هريرة: أربعون سنة؟ قال: أبَيْتُ. قيل: أربعون شهراً؟ قال: أبَيْتُ. قيل: أربعون يوماً؟ قال: أبَيْتُ[2].

---

(١) صحيح: رواه م (٢٧٨٨/٢١٤٨/٤) واللفظ له، د (٤٧٠٦/٥٧ و ٥٨/١٣) وقال: «بيده الأخرى» ولم يقل بشماله.

(٢) متفق عليه: رواه خ (٤٨١٤/٥٥١/٨)، م (٢٩٥٥/ ٢٢٧٠ و ٢٢٧١/٤).

فإذا أراد الله تعـالى أن يبعث مَنْ فى القـبور، أحيـا إسرافيل وأمـره أن يأخذ الصور، وينفخ فيـه النفخة الثانية، فـيقوم الناس من قبورهم قـياماً ينظرون **﴿يوم يدعوكم فتستجيـبون بحمده، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا﴾** [الإسراء: ٥٢]. فكيف يتم هذا؟ هذا ما سنعرفه إن شاء الله تعالى.

نسأل الله العظيم ربّ العرش العظيم أن ينجينا من هول هذا اليوم وأن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

* * *



النفخة الثانية

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون». قالوا: يا أبا هريرة: أربعون سنة؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون يوماً؟ قال: أبيت. «ثم يُنْزِلُ اللهُ من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل». قال: «وليس من الإنسان شىء لا يبلى، إلا عظماً واحداً، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»[١]. وفى رواية لمسلم: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، منه خُلِقَ، وفيه يركب»[٢]، منه خلق الإنسان، وفيه يركب جسمه يوم القيامة.

حتى إذا صار الناس تحت الأرض أجساداً كاملة، كهيئتهم يوم دُفنوا، أحيا الله تعالى إسرافيل وأمره أن يأخذ الصور فينفخ فيه النفخة الثانية، فإذا نفخ إسرافيل تطايرت الأرواح إلى أجسادها، وعادت كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره قبل الموت، لا تخطىء روحٌ جسدَها، وحينذاك تنشق الأرض عمّن فيها. قال ﷺ: «وأنا أول من تنشق عنه الأرض»[٣].

﴿إذا السماء انشقت * وأذنت لربها وحقّت * وإذا الأرض مُدّت * وألقت ما فيها وتَخَلّت * وأذنت لربها وحُقّت﴾ [الانشقاق: ١ - ٥]. **﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها * وأخرجت الأرض أثقالها﴾** [الزلزلة: ١، ٢]. وكأن الأموات كانوا فى بطن الأرض حملاً ثقيلاً عليها، فلما أمرها ربّها أن تتخلى عنهم لَفِظَتْهم وارتاحت من

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٤٨١٤/ ٥٥١/ ٨)، م (٢٩٥٥/ ٢٢٧٠ و ٢٢٧١/ ٤).

(٢) صحيح: رواه م (٢٩٥٥/ ٢٢٧١/ ٤)، د (٤٧١٤/ ٧٠/ ١٣)، نس (١١١/ ٤).

(٣) حسن: رواه ت (٣٦٩٣/ ٢٤٧/ ٥).

هذا الثقل الذى كانت تحمله ﴿وألقت ما فيها وتخلّت﴾ بعد أن كانت ملأى بمن دفن فيها.

كيف يخرج الناس من قبورهم؟ وكيف يساقون إلى أرض المحشر؟ إن هذا الموقف مهما تكلم فى وصفه الفصحاءُ، وتحدّث عنه البلغاءُ فإنهم لا يستطيعون أن يوفوه حقه من الوصف مثلما وصفه الربّ عزّ وجلّ، العالِمُ كيف يكون هذا الموقف، فماذا يقول ربنا عزّ وجلّ فى ذلك؟:

يقول تعالى: ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون * يوم يَخرُجُون من الأجداث سِرَاعا، كأنهم إلى نُصبٍ يوفِضُون * خاشعةً أبصارُهُم تَرهَقُهُم ذلَّةٌ ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون﴾ [المعارج: ٤٢ - ٤٤].

ويقول تعالى: ﴿يوم يَدعُ الداعِ إلى شىءٍ نُكُر * خُشَّعًا أبصارُهُم، يخرُجُون من الأجداثِ كأنهم جَرادٌ مُنتشِر * مُهطِعِين إلى الداعِ، يقول الكافرون: هذا يومٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦ - ٨].

ويقول تعالى: ﴿واستمع يوم ينادى المنادِى من مكان قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق، ذلك يوم الخروج * إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض عنهم سراعًا، ذلك حشر علينا يسير﴾ [ق: ٤١٢ - ٤٤].

يخرج الناس من قبورهم كأنهم جراد منتشر، يجيبون دعوة الداعى حين دعاهم ونادى عليهم ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾ [الإسراء: ٥٢].

يخرج الناس من قبورهم ينظرون ماذا حدث، حفاة، عراة، غرلا، قالت عائشة: «يا رسول الله، الرجال والنساء جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: ياعائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض»[١].

الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض، لقد أتاهم ما يشغلهم، حتى

(١) متفق عليه: رواه خ (٦٥٢٧/ ٣٧٧/ ١١)، م (٢٨٥٩/ ٢١٩٤/ ٤)، نس (١١٤/ ٤).

لايدرى الواقف من بجواره أرجل هو أم امرأة **﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأنٌ يغنيه﴾** [عبس: ٣٧]. **﴿ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين. ما ينظرون إلا صيحةً واحدة تأخذهم وهم يَخصِّمُون. فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يرجعون. ونُفِخَ فى الصُّور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلُون. قالوا يا ويلنا من بَعثَنَا من مَرقَدنَا؟ هذا ما وَعَدَ الرحمنُ وصَدَقَ المُرسَلُون﴾** [يس: ٤٨ - ٥٢]. لقد أخبرتْكم الرسلُ أن هذه الدنيا معبر وممر، وليست بمستقر، وأنكم إلى الله راجعون، فكذّبتم وقلتم ما نزل الرحمن من شيء، فهذا ما وعد الرحمن قد تحقق، وصار الغيب عياناً، وصدق المرسلون فيما أخبروكم به.

يومئذ تبدّل الأرض غير الأرض والسموات، ويخرج الناس من قبورهم فيسيرون إلى أرض المحشر، وأرض المحشر أرض غير هذه الأرض، أرض بيضاء عفراء، ليس عليها مَعْلَم لأحد، إنما هى أرض جديدة، أنشأها الله تبارك وتعالى، قال تعالى: **﴿يوم تبدّل الأرضَ غير الأرض والسموات وبرزوا للّه الواحد القهار﴾** [إبراهيم: ٤٨].

وفى هذا الوقت تتلقى الملائكةُ المؤمنين مبشّرين **﴿هذا يومكم الذى كنتم توعدون﴾**، يتلقّونهم بركائب من دواب الآخرة عليها سُرُج من ذهب، فيركب المؤمنون فينطلقون إلى أرض المحشر، وأما الكافرون الفاجرون فيمشون على وجوههم، قال تعالى: **﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا (*) ونسوق المجرمين إلى جهنم ورْدا﴾** [مريم: ٨٥، ٨٦]. **﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُميًا وبُكما وصُمًا﴾**. قيل: يا رسول الله، كيف يمشون على وجوههم؟ فقال ﷺ: «أليسَ الذى أمشاهم فى الدنيا على أرجلهم بقادر على أن يمشيهم فى الآخرة على وجوههم؟»[1]. بلى إن الله قادر على ذلك.

(*) أى: رُكْبانًا.

(١) متفق عليه: رواه خ (٦٥٢٣/ ٣٧٧/ ١١)، م (٢٨٠٦/ ٢١٦١/ ٤).

حتى إذا وصلوا أرض المحشر، قاموا فيها قياماً طويلاً، كل الخلق من لدن آدم إلى آخر من قامت عليهم الساعة، ولـيس للواقف إلا موضع قدمه. زحام شديد، وليس للإنسان مكان يرتاح فيه أو يأوى إليه، ليس له إلا موضع قدمه.

وتدنو الشمس من الرءوس، ويُزاد فى حرِّها، فـلا تكون بعيدة عن الناس إلا بمقـدار مـيل، قال الراوى: لا أدرى واللهِ مـاذا أراد رسـول الله بالميل؟ أهو مـيل المكحلة، أم ميل المسافة المعروفة؟[(١)].

﴿**يوم يقوم النـاس لرب العالمين**﴾ قال ﷺ فى تفـسيرها: «يقـوم أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»[(٢)].

ويُجَاء بجهنم فتقف حـول أهل الموقف، قال تعالى: ﴿**وجىء يومئذ بجهنم. يومئذ يتـذكر الإنسان وأنّى له الذكرى، يقول يا ليتنى قـدّمت لحياتى**﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]. قال ﷺ: «يؤتى بجهـنم يومئذ لها سبـعون ألف زمام، مع كل زمام سـبعون ألف مَلَك يجرونها»[(٣)].

زحام شديد، والشمس فوق الرءوس، وجهنم بالقوم محيطة، والزحام وحده كافٍ لأن يوجدَ حراً لا يُطاق، ومع ذلك فقد دنت الشمس من الرءوس، وأحاطت جهنم بالقوم، والسعيد من أظلَّه اللهُ بظلّه.

يخرج الناس من قـبورهم أشدّ مـا يكونون جوعاً وعطشـاً، إنهم رقدوا سنين طوالاً فى قبـورهم، وإن الإنسان ربّما نام ليلةً فيـصبح وقد شعـر بالجوع والعطش الشديديْن، فأما المؤمنون فإن الله تعـالى قد أعدّ لهم نُزُلاً فى هذا الموقف، قبل أن يدخلوا الجنة، يطعمهم ربُّهم ويسقيهم وهم فى أرض المحشر، حتى لا يجدوا شيئاً من جوع هذا اليوم وعطشه.

---

(١) **صحيح**: رواه م (٢٨٦٤/ ٢١٩٦/ ٤)، ت (٢٥٣٦/ ٣٧/ ٤).

(٢) **متفق عليه**: رواه خ (٤٩٣٨/ ٦٩٦/ ٨)، م (٢٨٦٢/ ٢١٩٥/ ٤)، ت (٣٣٩٢/ ١٠٥/ ٥).

(٣) **صحيح**: رواه م (٢٨٤٢/ ٢١٨٤/ ٤)، ت (٢٦٩٨/ ١٠٣/ ٤).

فأما طعامهم فقد قال رسول الله ﷺ: «تكون الأرضُ يوم القيامة خُبزةً واحدةً، يتكفؤها الجبارُ بيده كما يتكفأ أحدكم خبزتَهُ فى السَّفرِ، نُزُلاً لأهل الجنة»[١].

وأما شرابهم فإنهم يشربون من حوض النبى ﷺ، وهو حوض أكرم اللهُ به محمداً ﷺ وأمته، وقد سبقنا ﷺ إليه ليصلحه، استقبالاً لأمته.

سئل النبى ﷺ عن عرض هذا الحوض فقال: «حوضى من عدن إلى عمّان البلقاء، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وأكوابه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً»[٢].

وسوف يتقدّم نفر من هذه الأمة إلى الحوض ليشربوا، حتى إذا دنوا منه أُبْعِدوا عنه ولم يُمكَّنوا من الشرب، وهؤلاء هم أهل البدع والأهواء، الذين أحدثوا فى دين الله ما ليس منه.

قال ﷺ: «..... ألا وإنه سيُجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: ياربِّ أصحابى، فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ...»[٣].

فعليكم بالسُّنَّة، وإياكم ومحدثات الأمور، وإذا أردتَ يا عبد الله أن تكون ممن يَرِدُ حوض رسول الله ﷺ فاقتَفِ أثره، وتمسّك بسنّته، ولا تحدث فى دين الله شيئاً.

هكذا يُذْهِب الله عن المؤمنين الموحِّدين الجوعَ والعطشَ فى اليوم الآخر، فكيف يقيهم حرّ هذا الموقف، والناس قد اشتد بهم الحر، وألجمهم العرق إلجاما، وأخذهم على قدر خطاياهم، فمنهم من يلجمه العرق إلجاما، ومنهم من يكون عرقه إلى ركبتيه، ومنهم من يكون عرقه إلى حِقْوَيْه، ومنهم من يكون عرقه إلى

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٦٥٢٠/ ٣٧٢/ ١١)، م (٢٧٩٢/ ٢١٥١/ ٤).

(٢) صحيح: رواه ت (٢٥٦١/ ٤٧/ ٤)، كم (١٨٤/ ٤).

(٣) متفق عليه: رواه خ (٦٥٢٦/ ٣٧٧/ ١٣)، م (٢٨٦٠/ ٢١٩٤/ ٤)، ت (٢٥٣٩/ ٣٨/ ٤)، نس (١١٤/ ٤).

ترقوته[١]، أما المؤمنون الصالحون فإن الله ينادى: «أين المتحابّون بجلالى اليوم أُظلهم فى ظلى، يوم لا ظل إلا ظلّى»[٢].

الحبُّ فى الله سببٌ من الأسباب التى تقى الإنسانَ حرَّ الموقف يوم القيامة.

ومن الأسباب أيضاً ما ذكره رسول الله ﷺ فى قوله: «سبعة يظلّهم الله فى ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحابّا فى الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شمالُه ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[٣].

إن الكلام عن هول هذا الموقف يشيب الولدان، فكيف برؤيته؟ إن الكلام عن هول هذا الموقف تقشعرّ منه الأبدان، فكيف بمن يعانيه؟ إن الكلام عن هول هذا الموقف ترتعد منه الفرائص، فكيف بالناس يومها، وقد دنت الشمس من الرءوس، ولا كلام إلا للأنبياء، وكلام الأنبياء: اللهم سلِّم سلِّم.

يقوم الناس فى هذا الموقف قياماً طويلاً، ويطول عليهم الانتظار، حتى إن الرجل ليتمنى الخروج من هذا الموقف ولو إلى النار، يظن لشدة ما رأى أن النار لن تكون أشدّ مما رآه، أما المؤمنون الذين أظلهم الله فى ظله، فإن هذا اليوم مهما طال فلن يكون عليهم إلا كما بيْن صلاتى الظهر والعصر.

وفى هذا الموقف يعذَّب أناس وهم لم يزالوا فى أرض الموقف، وتحصل مشاهد تشيب لها الولدان، وتضع كل ذات حمل حملها.

يقول رسول الله ﷺ: «يخرج عنقٌ من النار له عينان تبصران، وأذنان تسمعان،

---

(١) صحيح: رواه م (٢٨٦٤/٢١٩٦/٤)، ت (٢٥٣٦/٣٧/٤).

(٢) صحيح: رواه م (٢٥٦٦/٩٨٨/٤).

(٣) متفق عليه: رواه خ (٦٦٠/١٤٣/٢)، م (١٠٣١/٧١٥/٢)، ت (٢٥٠٠/٢٤/٤)، نس (٢٢٢/٨).

ولسان ينطق، يقول: إنى وُكِّلْتُ اليوم بثلاثة: وكلت بكل جبّار عنيد، وبمن جعل مع الله إلهاً آخر، وبالمصوِّرين، فينطبق عليهم»[١].

ومن الناس من يُحْشَرَ كأمثال الذر، يطؤهم الناس بأقدامهم إهانة لهم، وهم المتكبِّرون.

يقول رسول الله ﷺ: «يحشر المتكبِّرون يوم القيامة كأمثال الذرّ فى صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُسحبون إلى سجن فى جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسْقَوْنَ من عصارة أهل النار طينة الخَبَال»[٢].

وهناك أناس قد منعوا الزكاة يُعَذَّبون فى أرض الموقف، ثم ينظر فى أمرهم.

قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمى عليها فى نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار.

قيل: يا رسول الله، فالإبل؟ قال: ولا صاحب إبل لا يؤدى منها حقها، ومِنْ حقِّها حلبها يوم وردها إلا إذا كان يوم القيامة، بطح لها بقاعٍ قرقرٍ، أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً، تطؤه بأخفافها، وتعضه بأفواهها، كلما مرّ عليه أُولاها رُدَّ عليه أُخْراها، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقْضَى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار.

قيل: يا رسول الله، فالبقر والغنم؟ قال: ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدى عنها حقّها إلا إذا كان يومُ القيامة بطح لها بقاع قرقر، لا يفقد منها شيئاً، ليس فيها

---

(١) صحيح: رواه ت (٢٧٠٠/١٠٣/٤).

(٢) متفق عليه: رواه ت (٢٦١٠/٦٦/٤).

عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما مرّ عليه أولاها رُدَّ عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»[1].

﴿هذا بلاغ للناس ولينذروا به، وليعلموا أنما هو إلهٌ واحد، وليذّكر أولوا الألباب﴾ [إبراهيم: ٥٢].

* * *

(١) صحيح: رواه م (٩٨٧/ ٦٨٠/٢)، د (١٦٤٢/٧٥/٥).

الشفاعة العظمى

﴿إنما إلهكُم اللّهُ الذى لاإله إلا هو، وَسِعَ كُلَّ شىء علمًا . كذلك نَقُصُّ عليك من أنباء ما قد سَبَقَ وقد آتيناك من لدُنَّا ذكرًا. من أعَرَضَ عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا. خالدين فيه وسَاءَ لهم يوم القيامة حملاً. يوم يُنفَخُ فى الصُّور ونَحشُرُ المجرمين يومئذ زُرقًا. يَتَخَافَتونَ بينهم إن لبثتم إلا عَشرًا. نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثَلُهُم طريقةً إن لبثتُم إلا يوما. ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفهَا ربى نَسفًا. فَيذرُهَا قاعًا صَفصَفًا. لا ترى فيها عِوجًا ولا أمتا. يومئذ يتبعون الدَّاعِىَ لا عِوَجَ له وخشعت الأصواتُ للرحمن فلا تسمع إلا هَمسًا. يومئذ لا تنفع الشَفَاعَةُ إلا من أذنَ له الرحمن ورَضِىَ له قولا. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علمًا. وعَنَتِ الوجوهُ للحَّى القيوم وقد خَاب من حَمَلَ ظلما. ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظُلما ولا هَضمًا﴾ [طه: ٩٨ - ١١٢].

ما أحسن كلام الله: ﴿اللّه نزَّلَ أحسنَ الحديث كتابًا متشابها مَثَانِىَ، تقشعرّ منه جُلُود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودُهُم وقلوبهم إلى ذكر اللّه﴾ [الزمر: ٢٣].

يا عباد الله: هل حضرتم محاكمة يوماً ما، هل دخلتم قاعة محكمة يوماً وسمعتم المرافعات والمجادلات من المحامين بين يدى القضاة، حتى إذا فرغوا من مرافعاتهم رفعت الجلسة ليتناقش القضاة بم يحكمون فى هذه الواقعة؟ إن كنتم حضرتم فأنا أسألكم: كيف ترون وجوه القوم فى قاعة المحكمة، وقد رفعت الجلسة، وأسدل الستار على القضاة لينظروا بم يحكمون، فى هذه الساعة الحرجة: هل تسمعون صوتاً؟ هل تسمعون مرافعات؟ هل تسمعون مناقشات؟ هل تسمعون

خصومات؟ لقد انقطعت المعاذير، وانتهت المرافعات، وأخرست الألسن، وخشعت القلوب، وبلغت القلوب الحناجر، والكل يتخيّل ويتوقّع ماذا يكون الحكم.

هذه أحوال تحدث للناس داخل قاعات المحاكم فى الدنيا، والقضاة فيها بشر، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ومع ذلك إذا دخلوا قاعة المحكمة وجلت القلوب، وربما ذرفت العيون من شدة الخوف، فإذا كان هذا حالهم إذا مثلوا بين يدى قاضٍ من البشر، فكيف بهم إذا قاموا يوم القيامة ينتظرون مجىء الحكم العدل، الملك الواحد الجبار القهار **﴿وخَشَعَت الأصواتُ للرحمن فلا تسمعُ إلا هَمسًا﴾**، **﴿وعنت الوجوه للحىّ القيّوم﴾** أى خضعت وذلّت للحىّ الذى لا يموت، القيّوم القائم بنفسه، المستغنى عن عباده، الذى يقوم كل شىء فى هذا الكون بأمره.

بينما الناس فى أرض المحشر، وقد دنت الشمس من الرءوس، **﴿وجىء يومئذ بجهنم﴾**، واشتدّ الحر، وأخذ الناسَ العرقُ **﴿ورأى المُجرمون النَّار فَظَنَّوا أنهم مُواقعوها ولم يَجدُوا عنها مصرفا﴾** [الكهف: ٥٣]، **﴿وأُزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾** [ق: ٣١]، هنالك طارت قلوب المجرمين خوفاً من النار، وطارت قلوب المؤمنين شوقاً إلى الجنة **﴿وإذا الجحيم سُعِّرَت، وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت﴾** [التكوير: ١٢ - ١٤].

﴿وأُزلفت الجنة للمتقين. وبرِّزَت الجحيم للغاوين﴾ [الشعراء: ٩٠، ٩١].

ونودى: **﴿قد خاب من حَمَلَ ظُلما. ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هَضمًا﴾** يومئذ **﴿تبيضّ وجوه، وتسودّ وجوه﴾**، **﴿وإن تدع مُثقَلَةٌ إلى حملهَا لا يُحمَل منهُ شَىءٌ ولو كان ذا قُربى﴾** [فاطر: ١٨].

وإذا رأيت ثَمَّ رأيت من يدعو بالثبور، ومن يدعو بالويل، ومن قد جمع يديه يعضّهما **﴿ويومَ يَعَضُّ الظَّالِمُ على يَديهِ، يقولُ يا ليتَنى اتخذتُ مع الرسولِ سبيلا.**

يا وَيلَتي لَيتَني لم أتخذ فُلانًا خَليلا. لقد أضَلَّني عن الذكر بعد إذ جَاءني، وكان الشيطان للإنسان خَذولا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

لما اشتد الكرب وبلغ الناس من الغمّ ما لا يطيقون قال بعضهم لبعض: «ألا ترون إلى ما أنتم فيه، ألا ترون ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيت، نفسى، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً، إلى ترى ما نحن فيه؟ إلى ترى إلى ما قد بلغنا؟ ألا تشفع لنا عند ربك؟ فيقول: إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنه قد كان لى دعوة دعوت بها على قومى، نفسى، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبىّ الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، أما ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم: إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنى كنت كذبت ثلاث كذبات - فذكرها -، نفسى، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى فيقولون: أنت رسول الله، فضّلك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، أما ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنى قد قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسى، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها

إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس فى المهد، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسى، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى محمد، فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ قال ﷺ: فأنطلق، فآتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربى، ثم يفتح الله علىّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلى، ثم يقال: يا محمد! ارفع رأسك، سل تعطه واشفع تشفّع، فأرفع رأسى فأقول: أمتى يارب! أمتى يارب! فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب»[١].

إن هناك رجالاً يدخلون الجنة بغير حساب، وقبل الفصل بين العباد، يكونون فى الجنة متكئين على سرر متقابلين، والناس ما زالوا فى أرض الموقف لم يفصل بينهم.

يقول رسول الله ﷺ: «يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً بغير حساب». قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون»[٢].

وليس هؤلاء فقط، بل جاء فى الحديث الآخر عن النبى ﷺ: «وعدنى ربّى أن يُدْخِل الجنة من أمتى سبعين ألفاً بغير حساب، مع كل ألف سبعون ألفاً، وثلاث حثيات من حثيات ربى عزّ وجلّ»[٣]. نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعلنا منهم.

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٤٧١٢/ ٣٩٥/٨) ، م (١٩٤/ ١٨٤/ ١) ، ت (٢٥٥١/ ٤٣/ ٤).

(٢) صحيح: رواه م (٢١٨/ ١٩٨/ ١).

(٣) صحيح: رواه ت (٢٥٥٤/ ٤٥/ ٤).

هذه الشفاعة لرسول الله ﷺ هى الشفاعة العظمى التى ليست لأحد سواه، وهى المقام المحمود، الذى وعده به ربه فى قوله: **﴿ومن الليل فتَهَجَّد به نَافلةً لك عَسَى أن يَبعثكَ ربُّك مقاماً مَحمُوداً﴾** [الإسراء: ٧٩].

ولرسول الله ﷺ شفاعات أخرى غير هذه الشفاعة.

منها: أن يشفّعه الله فى قوم يدخلون الجنة بغير حساب.

والثانية: أن يشفعه الله فى قوم استوجبوا دخول النار، حتى لا يدخلوها.

والثالثة: أن يشفعه الله فى قوم لِرَفْعِ درجاتهم فى الجنة فوق ما كانوا يستحقون.

والرابعة: أن يشفّعه الله فى أقوام دخلوا النار بذنوب لم يتوبوا منها حتى يخرجوا منها.

هذه شفاعات ﷺ للذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه.

والخامسة: شفاعة خاصة لكافر واحد ـ هو عمه أبو طالب ـ ليخفف عنه العذاب(١).

إن أبا طالب ربَّى رسول الله صغيراً، ورعاه كبيراً، وحماه، ونصره، ووقف بجواره، حتى يُبَلِّغ دعوة ربه، ولكن مع ذلك لم يشأ الله لأبى طالب أن يموت على الإسلام، دخل عليه رسول الله ﷺ وهو فى فراش الموت، فقال: يا عم، قل لا إله إلا الله، أشفع لك بها عند الله، فهمّ أن يقولها، فقال أبو جهل: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ قال: لا، بل على ملة عبد المطلب، ثم مات، فمات على الكفر، فحزن رسول الله ﷺ لموته على الكفر، فأنزل الله عليه قوله: **﴿إنك لا تهدى من أحببت، ولكن اللّه يهدى من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين﴾**(٢).

---

(١) شرح الطحاوية (٢٥٢ - ٢٦٠).

(٢) متفق عليه: رواه خ (١٣٦٠/ ٢٢٢/ ٣) و (٤٧٧٢/٥٠٦/٨) ، م (٢٤/ ٥٤/ ١) ، نس (٩٠و٩١/ ٤).

أبو طالب هذا يَخُصُّ ربُّنا عزّ وجلّ رسولَه ﷺ بشفـاعةٍ فيه، ترى ما هى هذه الشفاعة؟ أيشفّعه فيه فيخرجه من النار؟ لا، إن كل من مات على الكفر لن يخرج من النار أبداً، كـما قال ربنـا عزّ وجلّ: **﴿يريدون أن يخـرجوا من النار، ومـا هـم بخارجين منها، ولهم عذاب مقيم﴾** [المائدة: ٣٧]. ولكن الشفـاعة فى أبى طالب أن يخفف عنه العـذاب، فكيف يكون عذاب أبى طالب بعد شـفاعة رسول الله فـيه، «ينتعل نعلـين من النار، يغلى منهما دمـاغه، يرى أنه أشـد أهل النار عذاباً، وهو أهونهم»[1].

* * *

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٣٨٨٣/ ١٩٣/ ٧)، م (٢٠٩/ ١٩٤/ ١) و (٢١٢/ ١٩٦/ ١).

سـؤال الرسـل

يقول الله تعالى: ﴿ولا تحسبنّ اللَّه غَافلاً عَمَّا يعمل الظالمون، إنما يُؤخِّرُهُم ليوم تَشْخَصُ فـيه الأبصـار. مُهطعين مُقْنعي رءوسـهم لا يَرتَدُّ إليـهم طرفُهُم وأفئـدتُهُم هَواء. وأنذر الناس يوم يأتيـهم العـذابُ فـيقـولُ الذين ظلمـوا ربنا أَخِّرنا إلى أجل قريب نُجب دعـوتَكَ ونتبع الرسل أولَم تكونوا أقسمتم من قـبل ما لكم من زوال. وسكنتم فى مَسَاكِنِ الذين ظَلَمُوا أنفسهم وتَبَيَّنَ لكـم كيف فَعلنا بهم وضـربنا لكم الأمثـال. وقد مكروا مكرهم وعند الـلَّه مكرَهُم وإن كان مكرُهُم لتَزُول منهُ الجبال. فـلا تحسَبَن اللَّه مُخلفَ وعـده رُسُلَهُ إن اللَّه عزيزٌ ذو انتـقام. يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غَيـرَ الأرضِ والسمـواتُ وبرزوا للَّه الواحد القهـار. وترى المجرمينَ يومئـذ مُقرَّنينَ فى الأصـفـاد. سَرَابيلُهُم من قَطرانٍ وتَغـشَى وجُوهَهُمُ النار. ليـجـزى اللَّه كُل نفسٍ مَا كَسَبَت إنَ اللَّه سـريعُ الحسَاب. هذا بلاغ للناسِ ولِيُنـذَرَوا به وليـعلمُوا أنما هو إله واحدٌ وليذَّكَرَ أولوا الألباب﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٥٢].

على حسب ما بيَّنَّا فـيما سبق، ما زال أهل الموقف فى أرض الموقف قـياماً لله ربّ العالمين، الشمس من الرءوس دانية، وجهنم بهم مـحيطة، وقد اشتد الزحام، حتى علا القدمَ ألفُ قدم، وذهب العرق فى الأرض سبعين ذراعاً.

ما زال أهل الموقف شاخـصة أبصارهم، ﴿مهطعين مـقنعى رءوسهم، لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ قد انخلعت القلوب من أماكنها من شدة الخوف.

مـا زال أهل الموقف يتطلـعون، يـنظرون مـتى يأتى الربّ عـزّ وجلّ لفـصل القضاء، بعد أن شفع لهم رسول الله ﷺ.

ومجيء الرب لفصل الحساب قد ذكره الله تعالى فى القرآن فى أكثر من آية.

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم اللَّه فى ظُلَلٍ من الغَمَام والملائكةُ، وقُضِيَ الأمر وإلى اللَّه تُرجَعُ الأمور**﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقال تعالى فى سورة الفرقان: ﴿**ويوم تشقق السماء بالغمام، ونُزِّل الملائكة تنزيلا. الملك يومئذ الحق للرحمن، وكان يوما على الكافرين عسيرا**﴾ [الفرقان: ٢٥، ٢٦].

وقال تعالى فى سورة الزمر: ﴿**ونفخ فى الصور فصَعِقَ من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء اللَّه، ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. وأشرقت الأرض بنور ربها، ووضعَ الكتاب، وجيء بالنبيين والشهداء، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون**﴾ [الزمر: ٦٨، ٦٩].

وقال تعالى فى سورة الفجر: ﴿**كلاّ إذا دُكَّتِ الأرض دكًا دكًا. وجاء ربك والمَلَكُ صفًا صفًا**﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢].

ومجيء الرب عزّ وجلّ صفةٌ من صفاته كالاستواء، والنزول، ونحوهما من الصفات التى يجب إثباتها للرب عزّ وجل على النحو الذى يليق بجلاله، ولا يجوز تأويلها كالذين قالوا: ﴿**وجاء ربك**﴾ وجاء أمر ربك، وإنما يجب الإيمان بها كما جاءت بدون تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل ولا تحريف، وهذا ما عليه أهل السنّة والجماعة الذين هم الفرقة الناجية إن شاء الله يجيء الرب عزّ وجلّ: ﴿**ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية**﴾ [الحاقة: ١٧].

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ هذه الآية: ﴿**ويَومَ تشَقَّقُ السَّمَاءُ بالغَمَامِ ونزِّلَ الملائكَةُ تنزِيلا**﴾ [الفرقان: ٢٥]. قال ابن عباس: يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة فى صعيد واحد، الجن والإنس، والبهائم والسباع، والطير وجميع الخلق، فتنشق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من الجن والإنس، ومن جميع الخلق، فيحيطون بالجن والإنس وبجميع الخلق، ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها

فيحـيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وجميع الخلق، وهـم أكثر من أهل السـمـاء الدنيـا ومن جـمـيع الخلـق.... ثم كـذلك كل سـمـاء على ذلك التضعيف، حتى تنشق السماء السابعة فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السمـوات ومن الجن والإنس ومن جمـيع الخلق، فيحـيطون بالملائكة الذين نزلوا قـبلهم من أهل السمـوات، وبالجن والإنس وجمـيع الخلق كلهم، وينزل ربنا عـزّ وجلّ في ظلل من الغمام، وحوله الكروبيون، وهـم أكثر من أهل السموات السبع ومن الجن والإنس وجميع الخلق[1].

﴿وأشرقت الأرض بنور ربها، ووضع الكتاب، وجيء بالنبيين والشهداء ....﴾.

أتظنون مَنْ أولُ مَنْ يكلمه الله تعالى إذا جاء؟

قال رسول الله ﷺ: «أول من يدعى يوم القيـامة آدم: يقول الرب عزّ وجلّ: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك، والخير كله بيديك. فيقول الرب عزّ وجلّ: ياآدم أخْرِجْ بَعْثَ النار من ذريتك. فـيقول: يارب كم؟ فـيقـول: من كل ألف تسعـمائة وتسعة وتسعين. فعنده يشيب الصغير **﴿وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب اللّه شديد﴾**[الحج: ٢٢] [2].

ثم ماذا بعد هذا؟

يقول ربنـا عزّ وجلّ: **﴿يوم يَجمعُ اللَّه الرسلَ، فـيقولُ: ماذا أُجِبتُم؟ قالوا: لا علمَ لنَا إنك أنتَ علاَمُ الغُيُوب﴾** [المائدة: ١٠٩].

إنه لا يُسْأل من أُرسل إليـهم وحـدهم، وإنما سَيُسْأل المرسـلون ومن أرسلوا إليـهم. يقول ربنا عـزّ وجلّ: **﴿فَلَنَسـألنّ الذين أُرسِلَ إليهم، ولنَسـألَنَّ المرسلين﴾** [الأعراف: ٦].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣١٦/٣).

(٢) متفق عليه: رواه خ (٦٥٣٠/٣٨٨/١١)، م (٢٢٢/٢٠١/١).

يبـدأ الله تعـالى بسـؤال المرسلين أولاً: ﴿**يوم يجمـع اللّه الرسل...**﴾ الذين فرّقهم فى الزمـان فتتابعـوا على مداره، وفرّقهم فى المكان فذهـب كلٌ إلى قريته، وفرّقهم فى الأجناس فمضى كلٌ إلى قـومه. . . . يدعون كلّهم بدعوة واحدة على اختـلاف الزمان والمكان والأقوام، حتى جـاء خاتمهم بالدعوة الواحـدة لكل زمان ومكان وللناس كافة من جميع الأجناس والألوان. هؤلاء الرسل إلى شتى الأقوام فى شتى الأمكنة والأزمان. . . ها هو ذا مُرْسِلُهم فُرَادى يجمعـهم جميعاً، ويجمع فيهم شتى الاستجابات وشتى الاتجاهات، ويسألهم: ﴿**ماذا أُجِبْتُمْ؟**﴾ فاليوم تُجمع الحصـيلة، ويضمّ الشتات، ويُقَدّم الرسلُ حـسابَ الرسالات، وتعلـن النتائج على رءوس الأشهاد[1].

ورأى المرسلون أنهم بحضرة العليم الخبير، فاستحيوا أن ينطقوا بشىء، فردوا العلم إلى اللطيف الخبير، فقالوا: ﴿**لا علم لنا، إنك أنت علام الغيوب**﴾. لا علم لنا أى بحقيقة الأمر فإن الرسل بشر من جملة البشر، لا يعلمون إلا ما ظهر، وأما مـا خفى واسـتتـر فلا يـعلمه إلا اللطيف الخـبـير. وقَبِلَ اللهُ منهـم هذا الجـواب المختصر.

بعد ذلك يتـوجه الله تعالى بسؤال خـاص إلى عيسى ابن مريم عليـه السلام: ﴿**إذ قـال اللّه يَا عيـسَى بن مـريم: أأنتَ قُلتَ للنَّاسِ: اتَّخِذُونى وأمِّى إلَهَينِ من دون اللّه؟**﴾ [المائدة : ١١٦] ولِمَ يَخُصُّ عيسى بهذا السؤال؟ إن النبيين جميعاً آمن بهم من آمن، وكفـر بهم من كفر، وقـضى الأمر، أما النصـارى فقد اتهـموا عيـسى عليه السلام وقذفوه بما هو منه براء، فمنهم من قال: إنه إله، ومنهم من قال: ابن الله، ومنهم من جـعله هو وأمه إلهين، ولذا فـإن الله عزّ وجلّ بعـد ما يسـأل المرسلين جميـعاً وعيسى مـعهم: ﴿**ماذا أجبتم؟**﴾. يخص الرب عـزّ وجلّ عـيـسى بهـذا

---

(١) الظلال (٦٨/٣).

السؤال: ﴿**يا عيسى ابن مريم: أأنت قلت للناس: اتخذونى وأمى إلهين من دون اللّه؟**﴾. وإن الله ليعلم ماذا قال عيسى للناس. ولكنه الاستجواب الهائل الرهيب، فى اليوم العظيم المرهوب. الاستجواب الذى يقصد به إلى غير المسئول، ولكن فى صورته هذه وفى الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المؤلِّهين لهذا العبد الصالح الكريم.

إنها الكبيرة التى لا يطيق بشر عادى أن يقذف بها... أن يدعى الألوهية وهو يعلم أنه عبد.... فكيف برسول من أولى العزم؟ كيف بعيسى بن مريم؟

من أجل ذلك كان الجواب الواجف الراجف الخاشع المنيب... يبدأ بالتسبيح والتنزيه: ﴿**قال سبحانك**﴾. ويسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلاً: ﴿**ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق**﴾ ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته، مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته وخصائص ألوهية ربه: ﴿**إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه، تَعلمُ ما فى نَفسى ولا أَعلَمُ ما فى نفسك، إنك أنت علاّمُ الغُيُوب**﴾ [المائدة : ١١٦].

وعندئذ فقط، وبعد هذه التسبيحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير فيما قاله وفيما لم يقله، فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يعلن عبوديته وعبوديتهم لله، ويدعوهم إلى عبادته: ﴿**ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به: أن اعبدوا اللّه ربى وربكم**﴾.

ثم يخلّى يده منهم بعد وفاته، وأنه لا يدرى ما أحدثوا بعده، فيقول: ﴿**وكُنتُ عليهم شَهيدا مَا دُمتُ فيهم: فلما تَوفَّيتَنى كَنتَ أنتَ الرقيبَ عَليهِم، وأنت على كل شىء شهيد**﴾ [المائدة : ١١٧].

وينتهى إلى التفويض المطلق فى أمرهم، مع تقرير عبوديتهم لله وحده، وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم، وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء، سواء كان هو المغفرة أو العذاب.

﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾.

فيالله للعبد الصالح فى موقفه الرهيب!

وأين أولئك الذين أطلقوا هذه الفرية الكبيرة، التى يتبرأ منها العبد الطاهر البرىء ذلك التبرؤ الواجف، ويبتهل من أجلها إلى ربه هذا الابتهال المنيب؟

أين هم فى هذا الموقف، فى هذا المشهد؟ إن السياق لا يلقى إليهم التفاتة واحدة.

﴿قال اللَّه: هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ إنه التعقيب المناسب على كذب الكاذبين، الذين أطلقوا تلك الفرية الضخمة على ذلك النبى الكريم، فى أعظم القضايا كافة، قضية الألوهية والعبودية، التى يقوم على أساس الحق فيها هذا الوجود كله وما فيه ومن فيه.

﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ إنها كلمة رب العالمين، فى ختام الاستجواب الهائل على مشهد من العالمين. وهى الكلمة الأخيرة فى المشهد، وهى الكلمة الحاسمة فى القضية، ومعها ذلك الجزاء الذى يليق بالصدق والصادقين ﴿لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبداً، رضى اللَّه عنهم ورضوا عنه، ذلك الفوز العظيم﴾[1].

ومن المبشرات التى أحب أن أسوقها بمناسبة هذه الآية: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك ..... الآية﴾ أن النبى ﷺ قام يصلى ذات ليلة فقرأ سورة المائدة حتى أتى على هذه الآية، فأخذ يرددها ويبكى، فقال الله لجبريل: ائتِ محمدا وسَلْه ما يبكيه - وربك أعلم - فأتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ فسأله، فقال: يا جبريل أمتى، يا جبريل أمتى، فعاد جبريل إلى الرب عزّ وجلّ فقال: يارب إن محمداً يقول: أمتى أمتى. فقال الله: يا جبريل ائت محمداً وقل له: لا تبكِ فإنا سنرضيك فى أمتك»[2].

---

(١) الظلال (٦٨ - ٣/٧٧).

(٢) صحيح: رواه م (٢٠٢/١٩١/١).

بعد هذا الاستجواب الذى استجوبت فيه الرسل، يتوجه الله عز وجل بالسؤال إلـى الأمم: **﴿ويوم يناديهم فيقـول: مـاذا أجبـتم المرسلين﴾** [القصص: ٦٥]. سأل المرسلين أولاً: ماذا أجبتم؟ ثم سأل الأمم: **﴿ماذا أجبتم المرسلين﴾**.

يؤتى بالنبىّ وقومه: فـيقول الله تعالى للرسول: أبلّغت قـومك ما أمرتك به؟ فيقول: نعم يارب. فيقول الرب عزّ وجلّ للقوم: أبلّغكم هذا؟ فيقولون: لا والله ما بلغنا شيئاً، ما جاءنا من بشير ولا نذير، فيقول الله للرسول: من يشهد لك أنك بلغت؟ فيقول: محمدٌ وأمتُه يشهدون. فيأتى الرب عزّ وجلّ بمحمد وأمته ويسألهم: أتشهدون أن هذا النبى ـ نوحاً أو هوداً أو شعيبـاً أو غيرهم من الأنبياء ـ بلّغ أمته؟ فيقولون: نعم نشهد. فيقال لهم: ومـا علمكم؟ فيقولون: جاءنا محمد رسول الله بالهدى ودين الحق، وبلّغنا أن كل رسـول قد بلغ أمته، فـآمنا بذلك وصدقنا. ثم تلا رسـول الله ﷺ قـول الله عـزّ وجلّ: **﴿وكذلـك جعلناكم أمـة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾**(١).

بعد هذا تتطاير الصحف ويتقدم الناس للعرض على الله عزّ وجلّ، فكيف يتمّ هذا؟ هذا ما سنعرفه إن شاء الله.

نسأل الله تعالى أن يستر عيوبنا يوم تبلى السرائر.

* * *

---

(١) صحيح: رواه خ (٤٤٨٧/ ١٧١ و ١٧٢/٨)، ت (٤٠٤٠/ ٢٧٥/٤).

تطاير الصحف

يقول الله تعالى: ﴿فإذا نُفخَ في الصُّور نفخةٌ واحدةٌ * وحُملَت الأرض والجبال فدُكتا دَكَّةً واحدة * فيومئذ وقَعت الواقعة * وانشقت السمَاء فهى يومئذ وَاهية * والملكُ على أرجائها ويحملُ عَرشَ ربك فَوقَهم يومئذ ثمانية * يومئذ تُعرضُون لا تَخفَى منكم خافية * فأما مَن أُوتى كتابَهُ بيمينه فيقولُ هَاؤم اقرءوا كتابيه * إنى ظَننتُ أنى مُلاق حسَابِيَه * فهو فى عيشة راضية * فى جنة عالية * قُطُوفُهَا دَانيةٌ * كُلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتُم فى الأيام الخالية * وأما مَن أُوتى كتابه بشمَاله فيقول يا ليتَنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيَه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنَى عنِّى مَاليه * هلَكَ عنى سُلطانية * خُذُوه فَغُلُّوه * ثم الجحيمَ صَلُّوه * ثم فى سلسلة ذرعُها سبعون ذراعاً فاسلُكُوه * إنه كان لا يُؤمنُ باللَّه العظيم * ولا يَحُضُّ علَى طعامِ المسكين * فليسَ له اليَومَ هاهُنا حَميمٌ * ولا طعامٌ إلا من غِسلين * لا يأكُلُه إلا الخاطئُون﴾ [الحاقة: ١٣- ٣٧].

ابن آدم

مَثِّل وقوفَك يوم العرض عريانا ... مُستَوحشًا قَلِقَ الأحشاء حيرانا

واقرأ كتابك يا عبدى على مَهَلٍ ... فهل ترى فيه حرفا غير ما كانا

لَمَّا قرأتَ ولم تُنكر قراءته ... إقرارَ مَنْ عَرَفَ الأشياء عرفانا

نادى الجليل خذوه يا ملائكتى ... وامضوا بعبد عَصَى للنار عطشانا

المشركون غداً فى النار يَلْتَهِبُوا ... والمؤمنون لدار الخلد سكّانا

تعلمون أنه لابد لكل قاض قبل أن يقضى أن يفتح ملف القضية وينظر فيه ويطلّع على دقائقه وخفاياه، ويحلل تحليلاً دقيقاً كلَّ ما جاء فيه، ثم يحدد الأسئلة

التى يريد أن يوجهها إلى المتهم، وبعد ذلك يستدعى الشهود، وبعد سؤال المتهم وسماع أقوال الشهود، وبعد المرافعات يستطيع القاضى أن ينطق بكلمة الفصل فى القضية. وهذا الذى يكون فى محاكم الدنيا إنما أراد الله عزّ وجلّ به أن يكون صورة مصغّرة عن محكمة العدل الإلهية التى سيحاكم أمامها كل البشر يوم القيامة، حتى القضاة منهم.

فلنتصوّر أنفسنا الآن فى ساحة محكمة العدل الإلهية، وقد كتب على بابها: ﴿اليوم تُجزَى كل نفسٍ بما كسبت، لا ظلم اليوم، إن اللَّه سريع الحساب﴾ [غافر: ١٧].

والآن، والناس وسط هذا الزحام كله قد اشرأبَّتْ أعناقهم، وارتفعت أبصارهم، وتطاولوا حتى وقفوا على أطراف أقدامهم ينظرون صحائف أعمالهم، وملف قضاياهم الذى سيفتح لهم. وقبل العرض على الحاكم، يُسَلَّم الملف للمتهم لينظر فيه، قبل العرض على الله تعالى، يأذن سبحانه لصحف الأعمال فتطير على العباد، فيتناول كل إنسان كتابه، لا يقع كتاب فى يد غير صاحبه، بل كل كتاب يعرف صاحبَه، ويعرفه صاحبُه، ماإن تطاير الصحف حتى تمتد الأيدى لأخذها، وحينذاك ينقسم الناس قسمين:

قسم يأخذون صحائفهم بأيمانهم، وقسم إذا أرادوا أن يمدوا أيمانهم امتنعت عليهم، فلا يجدون بُداً من أن يمدوا شمائلهم فيأخذون بها صحائفهم.

ابن آدم: إن من الخطأ أن تظن أنك متروك فى هذه الحياة سدى، إن من الخطأ أن تظن أنك مهمل فى هذه الحياة، غير مراقَب وغير محاسَب، إن هذا الظن ظن باطل، والواجب على كل إنسان أن يعلم أن أقواله وأفعاله محسوبة عليه، ومسطّرة ومسجلة، لا تقبل الإزالة ولا تقبل التغيير، ولا تقبل التبديل. والإيمان بكتابة الأعمال جزء من عقيدة المؤمن، لأن كتاب ربنا قد نطق بذلك فى آيات كثيرة.

يقول تعالى فى سورة يس: ﴿إنا نحن نُحيى الموتى ونكتُبُ ما قَدَّمُوا وآثَارَهُم،

وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ [يس: ١٢].

ويقول تعالى في سورة الزخرف: **﴿أم أبرَمُوا أمرًا فإنَّا مُبرمُون. أم يَحسَبون أنَّا لا نسمعُ سِرَّهُم ونَجواهُم. بلَىٰ ورُسُلُنا لديهم يكتُبُون﴾** [الزخرف: ٧٩، ٨٠].

ويقول تعالى في سورة الجاثية: **﴿ولِلَّه مُلكُ السَّمٰوَات والأرض، ويوم تقُوم الساعةُ يومئذ يخسَرُ المبطلُون، وتَرىٰ كلَّ أُمَّة جَاثيةً، كُلُّ أمة تُدْعَى إلى كتَابها اليوم تُجزَون ما كُنتُم تعملونَ هذا كتَابُنَا ينطقُ عليكم بالحقِ، إنا كنا نَستنسِخُ مَا كنتم تعملون﴾** [الجاثية: ٢٧ - ٢٩].

ويقول تعالى في سورة ق: **﴿ولقد خَلقنَا الإنسانَ ونعلم ما تُوَسوِس به نفسه، ونحنُ أقربُ إليه من حبل الوريد. إذ يَتلقَّى المتلقيان عن اليَمينِ وعن الشمالِ قَعيد. ما يَلفظ من قول إلا لديه رقيبٌ عَتيد﴾** [ق: ١٦ - ١٨].

ويقول تعالى في سورة الانفطار: **﴿وإن عليكُم لحافظين. كِراما كَاتبين. يعلَمون ما تَفعَلون﴾** [الانفطار: ١٠ - ١٢].

ويقول الرسول ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلُّون، وأتيناهم وهم يصلُّون»[١].

ومن هنا قال ﷺ: «مَنْ صَلَّى البُرْدَيْنِ دخل الجنة»[٢]. والبردان صلاة الفجر وصلاة العصر.

وقد أعطى الله تعالى هؤلاء الكرامَ الكاتبين القدرةَ على الاطلاع على ما يهم به الإنسان، قال ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ قال لملائكته: يا ملائكتى: إذا همَّ عبدى

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٥٥٥/٣٣/٢)، م (٦٣٢/٤٣٩/١)، نس (٢٤٠ و ٢٤١/١).

(٢) متفق عليه: رواه خ (٥٧٤/٥٢/٢)، م (٦٣٥/ ٤٤٠/١).

بحسنة فعملها فاكتبوها له عشرا، فإذا لم يعملها فاكتبوها له حسنة واحدة، وإذا همَّ عبدى بسيئة فعملها فاكتبوها له سيئة واحدة، وإذا لم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإنه إنما تركها من جرَّائى»[١]. أى من مخافتى.

وقال ﷺ: «تقول الملائكة لربها: يا ربنا ها هو عبد من عبادك يريد أن يعمل معصية، فيقول الله: يا ملائكتى، أمهلوه وراقبوه، فإنْ عَمِلَهَا فاكتبوها عليه سيئة واحدة، وإن لم يعملها فاكتبوها له حسنة»[٢].

وهذه الصحف يا ابن آدم التى تسطر فيها أقوالك وأفعالك إذا متَّ طُوِيَتْ ثم جعلت فى عنقك، فإذا بُعْثر ما فى القبور بُسطت لك تلك الصحيفة مرة ثانية لتنظر ما فيها، وفى ذلك يقول ربنا عزّ وجلّ: **﴿وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه، ونُخرج له يومَ القيامة كتابًا يلقاهُ منشُورا. اقرأ كتابك، كفى بنفسكَ اليومَ عليكَ حَسيبا﴾** [الإسراء: ١٣، ١٤].

قال الحسن البصرى: يا ابن آدم بُسطت لك صحيفة، ووُكِّلَ بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقْلِلْ أو أكثِرْ، حتى إذا متَّ طُوِيَتْ صحيفتك، فجعلت فى عنقك معك فى قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً: **﴿اقرأ كتابك، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾**. فقد عدل ـ والله ـ من جعلك حسيب نفسك[٣].

فانظر يا ابن آدم ماذا تملى فى هذه الصحيفة، فإن كتبتك كرام بررة، لا يزيدون عليك ولا ينقصون منك، إنما يسجّلون بدقّة كبيرة جداً، ثم يوم القيامة تتطاير هذه

---

(١) صحيح، رواه: م (١٢٨/١١٧/٢).

(٢) صحيح، رواه: م (١٢٩/١١٨/١).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/٢٨).

الصحف ويأخذها أهلها ﴿فأما من أُوتِىَ كِتَابَهُ بيمينه فَسوفَ يُحاسَبُ حِسَابًا يَسيرًا وينقلبُ إلى أهله مَسرُورًا﴾ .

ما إن يأخذ كل إنسان كتابه حتى يعلم على وجه الفور أمِنْ أهل الجنة هو أم من أهل النار، يأخذ المؤمن كتابه فيقرأ سيئاته فيتغير وجهه، حتى إذا رأى أنه قد هلك، وجد الله قد قال له فى نهايتها: هذه سيئاتك وقد غفرتها لك، وهذه حسناتك وقد قَبِلْتُها منك. فينادى: ﴿هآؤم اقرأوا كتابيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

وأما الكافر فيقرأ حسناته حتى إذا ظن أنه قد نجا، وجد فى نهايتها مكتوباً: هذه حسناتك وقد رددتها عليك: ﴿وقَدِمْنَا إلى ما عَمِلُوا من عَمَلٍ فجعلناه هَبَاءً مَنثورا﴾ [الفرقان: ٢٣]. ، ﴿مَثَلَ الذين كَفَروا بربهم أعمَالُهُم كرَمَاد اشتدت به الريحُ فى يومٍ عاصف، لا يقدرُونَ مماكَسَبُوا على شىء، ذلك هو الضَّلالُ البعيد﴾ [إبراهيم: ١٨]. حينذاك ينادى: ﴿يا ليتنى لم أُوتَ كتابيه، ولم أدْرِ ما حسابيه. ياليتَهَا كانت القاضية، ما أغنَىٰ عنَى مَاليَه﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٢٨].

ولا أريد أن أقصّ عليكم الآن كيف يتقدم العباد للعرض على الله: ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ [الحاقة: ١٨]. ولكنى أذكركم أنه فى يوم القيامة إذا تسلمتم صحائف أعمالكم لن تستطيعوا إزالة شىء منها، ولن تستطيعوا تغيير شىء فيها، ولن تستطيعوا تبديل شىء فيها؛ لأن الله يقول: ﴿ما يُبَدَّلُ القولُ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٩]. ولكنى أقول لكم: ما زلتم فى دار الدنيا، ما زلتم تستطيعون أن تغيروا، وتستطيعون أن تبدلوا، تستطيعون أن تبادروا بالتوبة إلى الله فيتوب عليكم، وتستغفروه فيغفر لكم.

فيا عباد الله: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وتجهَّزوا للعرض الأكبر: ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ [الحاقة: ١٨].

لينقلبْ كلٌّ إلى بيته فيتصفَّح أعماله، وينظر فى نفسه ماذا كسب لها، وماذا

اكتسب عليها، فَيُكْثِر من الحسنات، ويتوب ويستغفر من السيئات، فإن الله قد وعد من تاب أن ينقل سيئاتهم إلى صحـيفة حسناتهم. قال تعالى: ﴿والذين لا يَدعُون مع اللَّه إلهاً آخر، ولا يقـتُلُون النَّفس التى حرَّم اللَّه إلا بالحق، ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يَلقَ أثَامَا * يُضَاعَفُ له العذابُ يوم القـيامة، ويخلد فـيه مُهَانا * إلا من تاب وآمن وعَملَ عَمَلاً صالحـاً، فأولئك يُبـدلُ اللَّه سيـئاتهم حـسنات، وكان اللَّه غـفوراً رحيما﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

اللهم إنا نستغفرك فاغفر لنا، ونتوب إليك فتب علينا.

* * *

العرض على الله «كيفية الحساب»

يقول الله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلمُ ما تُوسوِس به نفسُه، ونحن أقربُ إليه من حبل الورِيد * إذ يتلقى المُتَلـقيانِ عن اليمين وعن الشمال قَعـيد * ما يَلفظُ من قَولٍ إلا لديه رقيبٌ عتـيد * وجاءت سكرةُ الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد * ونفخ فى الصُّور ذلك يومُ الوعـيد * وجاءت كُلُّ نفس مَعَهَا سـائقٌ وشَهيد * لـقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنَا عنك غِطَاءَكَ فَبصَرُكَ اليومَ حَديد * وقال قرينهُ هذا ما لدَىَّ عتـيد * ألقيا فى جـهنم كل كَفَّار عنيد * منَّاعٍ للخير مـعتد مُريب * الذى جَعَل مع اللَّه إلهاً آخَرَ فألقياهُ فى العذاب الشديد * قال قرينُهُ ربنا مـا أطغَيْتُهُ ولكن كان فى ضَلال بعيـد * قال لا تَختَصـمُوا لدَىَّ وقد قدَّمت إليكم بـالوعيد * مـا يُبَدَّلُ القولُ لدى وما أنا بظلاَّم للـعبيـد * يوم نقولُ لجهنمَ هل امـتلأت وتقـولُ هل من مزيد * وأُزلفَت الجنةُ للمـتقـين غيـر بعيـد * هذا مـا توعَدون لكـل أوَّاب حـفـيظ * مَن خَشِىَ الرحـمنَ بالغـيبِ وجـاء بقلبٍ مُنيب * ادخلوهـا بسلام ذلـك يوم الخلود * لهم ما يَشاَءون فيها ولدينا مزيد * وكم أهلكنا قبلهم من قَرنٍ هم أشَدُّ منهم بطشًا فنَقَبوا فى البلاد هل من محيص * إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقىَ السَّمعَ وَهوَ شَهيد﴾ [ق: ١٦-٣٧].

ويقول المصطفى ﷺ: «مـا منكم من أحد إلا وسيكلّمـه ربّه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قـدّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشقّ تمرة»(١).

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٧٥١٢/ ٤٧٤/ ١٣) ، م (١٠١٦ - ٦٧ -/٧٠٣/ ٢) ، ت (٢٥٢٩/ ٤٥/ ٤)، جـــه (١٨٥/ ٦٦/ ١).

ومرّ الفُضيل بن عياض برجل، فقال له: كم مضى من عمرك؟ قال: ستون عاماً. قال: فأنت منذ ستين عاماً تسير إلى ربك، يوشك أن تبلغ. فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقال الفضيل: أتعرف تفسيره؟ تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. فمن علم أنه لله عبدٌ وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول فليعدّ للسؤال جواباً[١].

فهل أعددت جوابك يا ابن آدم؟ هل أعددت الجواب الذى تجيب به رب العزّة سبحانه يوم تقوم بين يديه فيقررك بذنوبك صغيرها وكبيرها؟ هل أعددت الجواب؟

على حسب ما بيَّنَّا فاليوم يوم الفصل، على حسب ما بيّنّا فاليوم يوم القضاء، على حسب ما بيّنّا فاليوم يوم العرض على الجبّار تبارك وتعالى: **﴿يومئذ تُعرَضُونَ لا تَخفَى منكم خَافية﴾** .

جاء الرب، ووضع كرسيه حيث شاء: **﴿وأشرقت الأرض بنور ربها، ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ....﴾** [الزمر: ٦٩]. وقامت الملائكة بين يَدَيِ الجبار سبحانه لتنادى على أهل الموقف واحداً بعد الآخر للعرض على الرب سبحانه: **﴿لِيَجزِيَ الذين أسآءوا بما عَمِلُوا ويَجزِى الذين أحسَنوا بالحُسنى﴾** [النجم: ٣١].

أترون مَنْ أول الناس يَقْضى اللهُ بينهم يوم القيامة؟

روى مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استُشْهِد، فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدت. قال: كذبتَ. ولكنك قاتلت لأن يقال: جرىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل تعلّم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأتى به فعرّفه نعمه

---

(١) جامع العلوم والحكم (٣٣٤).

فعرفها. قال: فما عملت فـيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت. ولكنك تعلـمت العلم ليقال: إنك عالم، وقرأت القـرآن ليقال: هو قارىء. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصـناف المال كله، فأتى به فعـرفه نعمـه فعرفـها. قال: فـما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت. ولكن فعلت ليـقال: هو جواد، فقد قيل. ثم أمر به فـسحب على وجهه ثم ألقى فى النار»[1].

المراءون هم أول الناس يقضى عـليهم يوم القيـامة. المراءون الذين لم يبتـغوا بأعمـالهم وجه الله. صلّوا ليراهم الـناس، وتصدّقوا ليـمدحهم الناس، وحـجوا ليحصّلوا لقب الحاج فلان، وتعلموا العلم ليقال: ما أعلمه! وقرأوا القرآن ليقال: أقْرَأ الناسِ فلانٌ.

هؤلاء وإن خفى أمرهم على العباد فإنه لا يخفى على رب العباد الذى ﴿يعلم السر وأخفى﴾.

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى»[2] وإن الله تبارك وتعالى لايقبل من الأعمال إلا ما كان خـالصاً لوجهه، موافقاً لِهَدْيِ نبيـه ﷺ. شرطان أساسيان لقبول العمل عند الله، الأول: الإخلاص. والثـانى: متابعة هدى النبى ﷺ. فأيما رجل عمل عـملاً لم يبـتغ به وجه الله فـهو مردود عليـه، وأيما رجل عمل عـملاً خالف فيه هدى رسول الله ﷺ فهو مردود عليه، وفى ذلك يقول رب العزة:

---

(١) صحيح: رواه م (١٩٠٥/ ١٥١٣/ ٣).

(٢) متفق عليه: رواه خ (١/ ٩/ ١) ، م (١٩٠٧/ ١٥١٥/ ٣) ، د (٢١٨٦/ ٢٨٤/ ٦)، ت (١٦٩٨/ ١٠٠/ ٣)، جه (٤٢٢٧/ ١٤١٣/ ٢)، نس (٥٩/ ١).

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ [الكهف: ١١٠].

فالعمل الصالح هو ما وافق السنّة: **﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾** الإخلاص.

ويقول ﷺ في هذين الشرطين:

الإخلاص: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١).

والمتابعة: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدّ»(٢)، «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ»(٣).

كأنى بأهل الموقف قائمين فى حر الشمس، وقد اشتد بهم الهول، وازداد عليهم الكرب، وقد بدأت المحاكمة. العظيمُ سبحانه على كرسيه، وبين يديه ملائكة غلاظ شداد، وأهل الموقف شاخصة أبصارهم، الكل ينتظر حتى ينادى عليه، ملائكة قائمون بين يدى الرب سبحانه ينادون: أين فلان ابن فلان؟ أين فلان ابن فلان؟ كم من اسم قد اشترك فيه ألوف؟ وكم من ألوف قد اشتركوا فى الاسم واسم الأب كذلك؟ فهل إذا قيل أين فلان ابن فلان، هل يقع خطأ أو لَبْسٌ عند من اشتركوا فى هذا الاسم؟ هل يقوم أحد غير الذى أريد بالنداء؟ لا والله، ما إن ينطق الملك: أين فلان ابن فلان حتى يقع فى قلب المقصود أنه هو.

فتوهّم نفسك أيها المسلم وقد نوديت باسمك على رءوس الخلائق أين فلان ابن فلان، هلمّ إلى العرض على الله تعالى، وقد وُكلت الملائكة بأخْذِك، فقربتك

---

(١) سبق قريباً.

(٢) متفق عليه: رواه خ (٢٦٩٧/٣٠١/٥)، م (١٧١٨/٣٤٣/٣)، د (٤٥٨٢/٣٥٨/١٢)، جه (١٤/٧/١).

(٣) صحيح: رواه م (١٧١٨/٣٤٣/٣)، خ (٣٥٥/٤) تعليقاً بزيادة فى أوله.

إلى الله، لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك واسم أبيك. إذ عرفت أنك المراد بالدعاء إذ قرع النداء قلبك فعلمت أنك المطلوب، فارتعدت فرائصك واضطربت جوارحك وتغيّر لونك، وطار قلبك. فتوهّم نفسك وأنت بين ملكين: أحدهما معه صحيفة أعمالك، والآخر يسوقك كما قال تعالى: **﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾** [ق: ٢١].

فما ظنك يا ابن آدم فى هذه الساعة؟ والملائكة يتخطون بك الصفوف ليصلوا بك إلى منصة الحكم والقضاء، إلى الله عزّ وجلّ؟

كيف يحاسب المؤمن؟:

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يُدْنى المؤمن فيضع عليه كَنَفَهُ ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أى رب: حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى فى نفسه أنه قد هلك. قال: سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته . . . . . »[١]. فيرجع إلى أهل الموقف فرحًا مستبشرًا مسرورًا يقول: **﴿هآؤم اقرءوا كتابيه﴾** [الحاقة: ١٩].

كيف يحاسب الكافر ؟ :

يقوم الكافر بين يدى ربه على رءوس الأشهاد بدون ستر ولا حجاب، حتى يفتضح أمره، فيقول له الرب عزّ وجلّ: أىْ عبدى، عملتَ يوم كذا، كذا وكذا، فيقول الكافر: وعزّتك وجلالك يارب ما عملته **﴿يوم يبعثهم اللّه جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء، ألا إنهم هم الكاذبون﴾** [المجادلة: ١٨]. يا عبدى: عملتَ يوم كذا، كذا وكذا؟ فيقول: وعزتك وجلالك يارب ما عملتُه. فيقول الملك الذى وُكِّلَ به: ألم تعمل يوم كذا، كذا وكذا؟ فيقول: وعزّتك وجلالك يارب ما عملته. فيقول الرب: أى عبدى كفى بى شهيداً، وكفى بالملائكة

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٢٤٤١/٩٦/٥)، م (٢٧٦٨/ ٢١٢٠/ ٤).

الكرام الكاتبين شهودا، لقد اطلعت على ما كان منك، وقد سَجَّلَتْ عليك الملائكة الذين وكلتهم بك. فيقول: وعزتك وجلالك يارب ما عملته، فيقول الرب: أى عبدى. من يشهد عليك؟ فيقول: يا رب لا أرضى على نفسى شهيداً إلا منها. يظن المسكين أنه سيسأل: أعملت أم لا؟ فيكذب على الله كما كان يكذب على المؤمنين فى الدنيا فينجو، وحينذاك يصدر الأمر الملكى من الجبار تبارك وتعالى للسان ألا يتكلم: **﴿اليوم نختمُ على أفواهِهِم وتُكَلمُنا أيديهم وتَشهَدُ أرجُلُهُم بما كانوا يَكسبُون﴾** [يس: ٦٥]. فتنطق الأيدى، والأرجل، والفخذ، والسمع، والبصر، الكل يشهد بما عمل وينطق به.

هذه اليد يا ابن آدم ستشهد عليك يوم القيامة، كم من مال حرام أخذت، وكم من جسد حرام لمست، وكم من مظلوم ضربت. وهذه الأرجل ستشهد عليك كم سعيت بها إلى حرام. الفخذ يشهد، والفرج يشهد، والسمع يشهد، والبصر يشهد، قال تعالى: **﴿ولاتَقْفُ ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾** [الإسراء: ٣٦].

حتى إذا نطقت الجوارح وشهدت بما عملت، خلّى الله بين هذا الكافر ونفسه، فرجع على نفسه باللوم والعتاب، فيقول: بُعْدًا لكُنَّ وسُحْقًا، فعنكن كنت أناضل[1]. قال تعالى: **﴿ويوم يُحشَرُ أعداءُ اللَّه إلى النَّار فَهُم يُوزَعُونَ * حَتىٰ إذا ما جاءوها شَهِدَ عليهم سمعُهُم وأبصارُهُم وجلُودُهُم بما كانوا يعملون * وقالوا لجُلُودهم لم شهدتُم علينا قالوا أنطَقَنَا اللَّه الذى أنطَقَ كلَّ شىء وهو خَلَقَكُم أول مرة وإليه تُرجعون * وما كنتم تَستَرُون أن يشهد عليكم سمعُكُم ولا أبصارُكُم ولا جُلُودُكُم ولكن ظَنَنتُم أن اللَّه لا يعلمُ كثيرًا مما تعملون * وذلِكُم ظَنُّكُمُ الذى ظَنَنتُم**

(١) صحيح: رواه م (٢٩٦٩/ ٢٢٨٠/٤).

بربكم أرداكُم فأصبحتُم من الخَاسِرين * فإن يصبِرُوا فالنار مَثوى لهم وإن يستَعتِبُوا فما هُم مِنَ المعتَبين ﴾ [فصلت: ١٩ - ٢٤].

فيا ابن آدم: تَخَيَّلْ هذا الموقف جيداً، وانظر إليه بنور البصيرة، تطلّع إلى هذا الموقف بنور الإيمان، تطلّع إلى هذا الموقف وأنت بين الناس تنتظر متى ينادى عليك: ليقم فلان ابن فلان، فتقوم بين ملكين غلاظ شداد، يسوقانك إلى ربك عزّ وجلّ، فتقف بين يديه، فيقررك بذنوبك، ويذكرك نعمه عليك، فيالله ما أشد حياءك وقتها، ويالله ما أشد خجلك وقتها! ويالله ما أشد ندمك وإحراجك وأنت قائم بين يدى ربك.

فخلّص نفسك من الآن، فما زلت فى دار الدنيا، ما زلت فى دار العمل، اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل **﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾**.

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يحاسبنا حساباً يسيراً.

* * *

أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة

عن أبى هـريرة أن النبى ﷺ قال: «إن أول ما يُحَاسَب به العـبـدُ يوم القيامـة مـن عـمله صلاتـه، فـإن صلحـت فقـد أفلـح وأنجح، وإن فسـدت فقـد خاب وخسـر، فإن انتقص مـن فريضتـه شىء، قال الرب تبارك وتـعالى: «انظروا هل لعبدى من تطوّع؟ فيكمل بها ما انتـقص من الفريضة، ثم يكـون سائر عمله على ذلك»[1].

إن الصـلاة ذات منزلة عظيـمة فى الإسـلام، إن الصـلاة ذات منزلة رفـيعـة ودرجة عالية فى الإسلام. إن الصـلاة هى شعار الإسلام الظاهر، وهى التى تفرق بين المسلم وغيره.

ولقد كانـت الصلاة أول ما فرض الله على العـباد، فرضهـا سبحانه بمخـاطبته لنبيه ﷺ ليلة المعراج بلا واسطة، حيث قـال ربنا ـ كما يعلم الجميع ـ لرسول الله ﷺ: «فرضتُ عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فى اليوم والليلة». وسمع رسول الله وأطاع، وقَبِلَ ما كُلِّف به هو وأمته، فلما عـاد لقى موسى، فسأله موسى: بِمَ جئت من عند ربك؟ قال: بخمسين صلاة. قال: يا محمد، ارجع إلى ربك وسَلْه التخفيـف: فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجع ﷺ إلى ربه وسأله التخـفيف، فحطّ عنه عشـرا، وعاد إلى مـوسى فأخبـره بما حطّ عنه ربه، فقـال موسى: ارجع إلى ربك وسله التخفيف، فرجع وسأل التخفيف، فحط الله عنه عشرا. . وهكذا حتى صارت خمسا بدلاً من خمسين، وبعـدها قال الرب عزّ وجلّ، وقد عاد محمد ﷺ

(١) صحيح: رواه ت (٤١١/٢٥٨/١)، جه (٤٢٥/٤٥٨/١)، نس (٢٣٢/١).

هابطاً: أمضيتُ فريضتى وخففتُ عن عبادى: **﴿ما يبدَّل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد﴾**[١].

وقال ﷺ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله»[٢].

فاتقوا الله معشر المسلمين، واستجيبوا لربكم حيث قال: **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا للَّه قانتين﴾** [البقرة: ٢٣٨]. واعلموا أن رسول الله ﷺ قال: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»[٣].

وقال: «العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»[٤]. حمل الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ الكفر فى الحديث على حقيقته، فقال: من ترك الصلاة فقد كفر وارتد عن الإسلام، إذا مات على تركه للصلاة لا يغسّل، ولا يكفّن، ولا يصلى عليه، ولا يدفن فى مقابر المسلمين.

وأما جمهور العلماء منهم الشافعى ومالك وأبو حنيفة وغيرهم فقد حملوا الكفر المذكور فى الحديث على الكفر الأصغر الذى لا يخرج من الملة، فيسمى تارك الصلاة كافراً، كما سماه رسول الله ولكن يظل فى حظيرة الإسلام فى الحضيض منها حتى يتوب إلى الله ويحافظ على الصلاة.

وعمدة الجمهور فيما ذهبوا إليه من حمل الكفر على الكفر الأصغر الذى لايخرج من الملة، ما رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «خمس صلوات افترضهن الله على العباد، من أحسن

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٣٢٠٧/٣٠٢/٦) ، م (١٦٢ - ١٦٤/١٤٥ - ١٥١/١).

(٢) صحيح: رواه ت (٢٧٤٩/٢٤/٤)، جه (٣٩٧٣/١٣١٤/١).

(٣) صحيح: رواه م (٨٢/٨٨/١)، د (٤٦٥٣/٤٣٦/١٢)، ت (٢٧٥١/١٢٥/٤)، جه (١٠٧٨/٣٤٢/١).

(٤) صحيح: رواه جه (١٠٧٩/٣٤٢/١)، ت (٢٧٥٦/١٢٥/٤)، نس (٢٣١/١).

وضوءهن، وصلاهن لوقتهن، وأتم ركوعهن وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له. ومن لم يفعل فليس له على الله عهد، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له»[١].

ومن المعلوم أن الكفر ليس داخلاً فى المشيئة، لأن الله يقول: ﴿**إن اللَّه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ [النساء: ٤٨]. فلما ردّ رسول الله أمْرَ تارك الصلاة إلى المشيئة دل على أن ذنبه هذا دون الشرك، فإن مات على التوحيد فأمْرُه إلى الله، إن شاء غفر له ابتداء، وإن شاء عذبه فى النار بعدله، ثم يخرجه منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته.

ولكن إلى تاركى الصلاة من المسلمين أوجّه هذا التحذير:

احذروا بطش ربكم، واحذروا غضبه وعقابه، واعلموا أن من أكبر الكبائر ترك الصلاة، والكبائر بريد الكفر، كما أن النظرة بريد الزنى، وأنه يُخْشَى على من ضيّع الصلاة أن يموت على غير التوحيد والعياذ بالله.

واعلموا عباد الله: أنه كما يجب على المسلم أن يحافظ على الصلاة، يجب عليه أيضاً أن يعلم أن الله قال: ﴿**إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا**﴾ فلا يجوز لمسلم أن يؤخر الصلاة حتى يخرج وقتها إلا لعذر.

وكذلك يجب على المسلم أن يعلم أن شهود الجماعة واجب إلا من عذر، لأن الرسول ﷺ جعل التخلف عن الجماعة من صفات المنافقين، فقال ﷺ: «أثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر»[٢]. وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: «من سره أن يلقى الله تعالى غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله شرع لنبيكم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم

---

(١) صحيح: رواه أ (٨٢/ ٢٣٤/ ٢)، ت (٨٢/ ٢٣٤/ ٢)، د (٤٢١/ ٩٣/ ٢)، جه (١٤٠١/ ٤٤٩/ ١)، نس (١/ ٢٣٠).

(٢) متفق عليه: رواه خ (٦٥٧/ ١٤١/ ٢)، م (٦٥١/ ٤٥١/ ١).

سنّة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم. ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يُهَادَى بين الرجلين حتى يُقَام فى الصف»[١].

فاتقوا الله عباد الله، وحافظوا على الصلوات، ومُرُوا بها أهليكم وأولادكم، لقول الله تعالى: ﴿**وأمُرْ أهلك بالصلاة واصطبرْ عليها * لا نَسألُكَ رِزقًا * نحن نرزُقُكَ، والعاقبةُ للتقوى**﴾ [طه: ١٣٢].

ولقوله ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفَرِّقوا بينهم فى المضاجع»[٢].

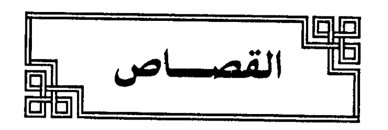
نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

* * *

---

(١) صحيح: رواه م (٦٥٤ - ٢٥٧ - / ٤٥٣/ ١)، د (٥٤٦/ ٢٥٤/ ٢)، جه (٧٧٧/ ٢٥٥/ ١).

(٢) صحيح: رواه د (٤٩١/ ١٦٢/ ٢).



القصاص

يقول الله تعالى: ﴿ولا تحسبنّ اللَّه غَافلاً عما يعمَل الظالمون، إنما يُؤخرُهُم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصار * مُهطعين مُقنعي رءوسهم لا يرتَدُّ إليهم طرفُهُم وأفئدتُهُم هَوَاء * وأنذر الناس يوم يأتيهم العذابُ فيقولُ الذين ظَلَمُوا ربنا أخِّرنا إلى أجلٍ قريب نُجب دعوتَكَ ونتبع الرُّسُل أولم تكونوا أقسَمتُم من قبل ما لكم من زَوَال * وسكنتم فى مَسَاكنِ الذين ظلموا أنفسَهُم وتبين لكم كيفَ فعلنا بهم وضَربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مَكرَهُم وعند اللَّه مكرُهُم وإن كان مكرُهُم لتَزُولَ منه الجبال * فلا تحسبن اللَّه مُخلفَ وعده رُسُله إن اللَّه عزيز ذو انتقام * يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسموات وبَرَزُوا للَّه الواحد القهار * وترى المجرمين يومئذ مُقرَّنينَ فى الأصفاد * سرابيلُهم من قَطران وتغشَى وجوهَهُم النار * ليجزى اللَّه كُلَّ نفسٍ ما كَسبت إن اللَّه سريعُ الحساب * هذا بلاغ للناس وليُنذَرُوا به وليعلَمُوا أنما هو إلهٌ واحد وليذكرَ أُولُوا الألباب﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٥٢].

ابن آدم:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا	فالظلم ترجع عُقْبَاهُ إلى الندم
تنام عينُك والمظلومُ مُنْتَبِهٌ	يدعو عليك وعينُ اللَّه لم تَنَمِ

ابن آدم: إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكَّرْ قدرة الله عليك، فإن الله يقول: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أولُ ما يُقْضى

فيه يوم القيامة بين العبادِ الدماءُ»[١].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قـال: «أول ما يحاسب به العـبد يوم القيامة من عمله صلاته»[٢]. والجمع بين الحديثين أن هـذا الحديث الثانى إنما هو فيما يتعلق بحقوق العباد بعـضهم البعض، فأول ما يحاسب عليه العبد من حق الله عليه الصـلاة، وأول ما يحـاسب عليه من حـقوق العبـاد الدماء التى سـفكها بغيرحق، والأرواح التى أزهقها بغير حق، والأنفس البريئة التى قتلها بغير حق.

إذا فرغ الله تعالى من مـحاسبة العـباد فيما يتـعلق بحقه عليهم، أذِن سـبحانه لدواوين المظالم أن تنصب وتنشر، ثم نادى مناد: من كان له عند إنسان حق فليقم فليأخذه ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت، لا ظلم اليوم﴾ [غافر: ١٧].

فلا يحسبن حاسب، ولا يظنن ظانّ أن ظلمه للعباد، وسفكه دماءهم، ووقوعه فى أعراضهم، وأكله أموالهم بالباطل، لا يحسبن حاسب، ولا يظنن ظانّ أن ذلك يضيع سدى. لاوالله، إنه «إذا كان يوم القيامة: نادى الله تعالى بصوت يسمعه من بَعْدَ ومن قَرُبَ: أنا الملك، أنـا الديّان، لا ينبـغى لأحـد من أهـل الجنة أن يدخل الجنة، وواحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حـتى اللطمة. ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وواحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة»[٣].

إن الظلم عاقبتـه وخيمة، وهو منبع الشر ومصدر الفـساد، والأمة التى يشيع فيها الظلم ولا تضرب يد الظالم فيها، ولا يؤخذ للمظلوم حقه من الظالم، أمة لا تستحق الحياة.

إن الأمة التى تضيع فيها الحقوق، وتهدر فيها الكرامات، ولا يضرب فيها على

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٦٨٦٤/ ١٨٧/ ١٢)، م (١٦٧٨/ ١٣٠٤/ ٣)، جـه (٢٦١٥/ ٨٧٣/ ٢)، نس (٨٣/ ٧)، ت (١٤١٦/ ٤٢٧/ ٢).

(٢) سبق قريباً. .

(٣) مستدرك الحاكم (٣/ ٢٥٦).

يد الظالم بمقامع من حديد لِيَرْجعَ عن ظلمه، ولا يؤخذ فيها من القوى للضعيف، أمةٌ قد حُكِمَ عليها بالهلاك والدمار.

يقول ﷺ: «إن الله لا يقدس أمة لا يأخذ الضعيفُ حقَّه من القوى، وهو غير متعتع»[١].

ويقول ﷺ: «إن الله لا يقدس أمة لا يعطون للضعيف منهم حقَّه»[٢].

إن الظلم ظلمات يوم القيامة، هكذا جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ[٣].

ولقد حذّر ﷺ الأمة من الظلم، وحثَّ الظالمين على أن يتحللوا من المظالم فى الدنيا قبل الآخرة، فقال ﷺ: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فَلْيَتَحَلَّلْه منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[٤].

ومن هنا قال ﷺ يوماً لأصحابه: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناتُه قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثم طرح فى النار»[٥].

فاللهَ اللهَ، عبادَ الله، اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وتحللوا من المظالم فى الدنيا قبل يوم القيامة، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، من كان عنده

---

(١) صحيح: أخرجه السيوطى فى «الجامع الصغير»، وصححه الألبانى (١٨٥٣).

(٢) صحيح: أخرجه السيوطى فى «الجامع الصغير»، وصححه الألبانى (١٨٥٤).

(٣) صحيح: رواه م (٢٥٧٨/١٩٩٦/٤).

(٤) صحيح: رواه خ (٢٤٤٩/١٠١/٥)، ت (٢٥٣٤/٣٧/٤).

(٥) صحيح: رواه م (٢٥٨١/١٩٩٧/٤)، ت (٢٥٣٣/٣٦/٤).

حق فليرده على صاحبه ومن كان قد أكل مـالاً بغيرحق فليرده على صاحبه، ومن كان قد ظلم مظلمة لا يستطيع أن يصرح بها لصاحبها فعليه أن يستغفر الله للمظلوم ويدعو له بظهر الغيب، ويكثر من الحسنات حتى يسترد المظلوم منه مظلمته يوم القيامة.

واعلموا عباد الله: أن من أظلم الظلم قتل النفس البريئة بغير وجه حق، ولذا كانت الدماء أولَ ما يقضى فيها بين العباد.

إن قتل النفس البريئـة بغير حق جريمة قبيحـة ومنكرة، ولذا جاء فى الحديث: «لَزَوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق»[1].

وجاء فى الحديث: «لو أن أهل السماء والأرض اشـتركوا فى دم مؤمن لكبهم الله عزّ وجلّ فى النار»[2].

وقال الله تعالى: **﴿وما كـان لمؤمن أن يقتل مـؤمنا إلا خطأ...﴾** وبعـد أن ذكر كفارة القتل الخطأ، ذكر عقوبة القتل العمد فقال: **﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم، خالداً فيها، وغَضِبَ اللَّه عليه، ولَعَنَهُ، وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾** [النساء: ٩٣].

ولذا ذهب بعض العلمـاء إلـى أن قاتل الـعمـد لا تقبـل توبتـه لهـذه الآيـة. ولكن الصحـيح من أقوال العلماء أن قـاتل العمد إذا تاب وأحسن توبتـه، وصدق فيما بينه وبين ربه، قبـل الله توبتــه وغفـر له، وأدخـله الجنـة إن عاجلاً أو آجلاً بعد القصاص والتطهـير فى جهنم، لأن الله قال: **﴿والذين لا يدعُون مع اللَّه إلهـاً آخـر، ولا يقتُلُون النفـس التى حَرَّمَ اللَّه إلا بالحق، ولا يزنون، ومن يفـعل ذلك يَلقَ أثَامًا * يُضَاعَف له العـذاب يوم القـيـامـة ، ويخلُد فـيـه مُهَانا * إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحا، فأولئك يُبدل اللَّه سيئاتِهِم حسنات، وكان اللَّه غفورا رحيما﴾** [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

---

(١) صحيح: رواه جه (٢٦١٩/ ٧٨٤/ ٢).

(٢) صحيح: رواه ت (١٤١٩/ ٤٢٧/ ٢).

ومِنَ الظلم أكْلُ أموالِ اليتـامى، قال تعالى: **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا، وسيصلون سعيرا﴾** [النساء: ١٠].

ومن الظلم إعطاء بعض الأولاد وحرمان البعض الآخر، فقد جاء والد النعمان ابن بشيـر إلى رسول الله ﷺ فـقال: إنى نحلت ابنى هذا غـلاماً. فـقال: «أكُلَّ ولَدِك نَحَلْتَ مِثْلَه؟» قـال: لا. قال: «فَارجِعْهُ». وفى رواية أنه قـال: «أيَسُرُّك أن يكونوا إليك فى البر سواء؟» قال: بلى. قـال: «فلا إذن». وفى رواية أن النعمان قال: أعطانى أبى عطيـة، فقالت عمرة بنت رواحـة: لا أرضى حتى تُشْهِد رسولَ الله ﷺ، فـأتى رسول الله ﷺ فـقـال: إنى أعطيت ابنى من عـمرة بنت رواحـة عَطِيَّةً، فأمـرتْنى أنْ أشْهِدك يا رسـول الله. قال: «أعطيتَ سائـرَ ولدك مثلَ هذا؟» قال: لا. قال: «فاتقوا الله، واعدلوا بين أولادكم». قال: فرجع فردّ عطيته. وفى رواية أنه قال: «لا أشهد على جَوْرٍ»[(١)].

ومن الظلم حرمـان الإناث خاصة من الميـراث والتركة، وقـد قال ﷺ: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقـه يوم القيامة من سبع أرضين»[(٢)]. فما بالك بالذى ظلم دونمات لا تحصى. كيف يقوى على حملها يوم القيامة، وقد طوق بها عنقه.

ومن الظلم عدم العـدل بين الزوجات، وقد جاء فى الحـديث: «من كانت له امرأتان، فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وشِقُّه مائل»[(٣)].

«فكيف بك يا ابن آدم إذاقرأت صـحيفـتك يوم القيامـة ورأيت فيهـا حسنات رجوت أن تنجو بها، وبينما أنت كذلك إذ أحاط بك خصماؤك، فأخذ هذا بيدك، وأخـذ هذا بناصيـتك، وتعلق هذا بلبّتك، فـهذا يقـول: ظلمتنى، وهذا يقـول:

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٢٥٨٧/ ٢١١/ ٥)، م (١٦٢٣/ ٢٤٢/ ٣)، ت (٣٧٩/ ٤١١/ ٢)، نس (٦/٢٥٨).

(٢) متفق عليه: رواه خ (٣١٩٥/ ٢٩٢/ ٦)، م (١٦١٢/ ١٢٣١/ ٣).

(٣) صحيح: رواه د (٢١١٩/ ١٧١/ ٦) واللفظ له، ت (١١٥٠/ ٣٠٤/ ٢)، نس (٦٣/ ٧)، جه (١٩٦٩/ ٦٣٣/ ١).

شتمتَنى، وهذا يقـول: استهزأت بى،وهذا يقول: ذكرتنى فى الغـيبة بما يسوؤنى، وهذا يقول: جـاورتنى فأسأت جوارى، وهذا يقـول: عاملتنى فغشـشتنى، وهذا يقول: بايعتنى وأخفيت عنى عيب سلعتك، وهذا يقول: كذبت فى سعر متاعك، وهذا يقـول: رأيتنى محـتاجاً وكنـت غنياً فمـا أطعمـتنى، وهذا يقول: وجـدتنى مظلوماً وكنتَ قادراً على دفع الظلم فداهنت الظالم وما راعيتنى.

فبينما أنت كـذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخـالبهم، وأحكموا فى تلابيبك أيديهم، وأنت مبهوت متحيّر من كثرتهم، حتى لم يبق فى عمرك أحد عاملته على درهم، أو جالستـه فى مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغـيبة، أو جناية، أو نظر بعين استحقـار، وقد ضعفت عن مقاومتهم، ومـددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك، لعله يخلصك من أيديهم، إذ قرع سمَعك نداءُ الجبار: ﴿**اليوم تجزى كل نفس بما كسبت، لا ظلم اليوم**﴾، فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة، وتُوقن نفسُك بالبوار، وتتـذكر ما أنذرك الله به عـلى لسان رسوله حـيث قال: ﴿**وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون**﴾.

فمـا أشد فرحك اليـوم بِتَمَضْمُضِكَ بأعراض الناس، وتناولك أمـوالهم، وما أشدّ حـسرتك فى ذلك اليـوم إذا وُقف بك على بساط العـدل، وشُوفِهْت بخطاب السيـئات وأنت مفلس فـقير، عـاجز مهين، لا تـقدر على أن ترد حقـاً، أو تظهر عذراً، فـعند ذلك تؤخذ حسناتك الـتى تعبت فيـها عُمُرَك، وتنقل إلى خصـمائك عوضاً عن حقوقهم، كما جاءت بذلك الأحاديث.

فانظر إلى مـصيـبتك فى هذا اليـوم، إذ ليس لك حسنة قد سـلمتْ من آفات الرياء، ومكايـد الشـيطان، فـإن سلمت حـسنة واحـدة فى مـدة طـويلة ابتـدرها خصماؤك وأخذوها.

فكيف بك يا مسكين فى يوم ترى فيـه صحيفتك خالية من حـسنات طال فيها

تعبك، فتقول: أين حسناتى؟ فيقال: نُقلتْ إلى صحيفة خصمائك، وترى صحيفتك مشحونة بسيئات غيرك فتقول: يارب، هذه سيئات ما قارفتها؟! فيقال: هذه سيئات الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء، وظلمتهم فى المعاملة والمبايعة، والمجاورة والمخاطبة، والمناظرة والمذاكرة والمدارسة، وسائر أصناف المعاملة[١].

فخلّص نفسك يا ابن آدم مما عندك من الحقوق، وردّ المظالم إلى أهلها، ولا تظلمن أبداً، واعلم أن الله مع المظلوم عليك حتى يأخذ له حقه، إما فى الدنيا أو الآخرة.

ولذلك حذّر النبى ﷺ من دعوة المظلوم، فقال لمعاذ بن جبل وقد بعثه إلى اليمن: «... واتّقِ دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[٢].

أيها الظالم إذا نجوت من عدالة الدنيا فلا يغرنّك ذلك، فإن المحاكمة ستستأنف أمام محكمة العدل الإلهية ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ [الزمر: ٣١].

أيها الظالم لئن احتلت على القضاء بشهود الزور وبالكذب والاحتيال حتى حكم لك قضاة الدنيا فلا يغرنّك ذلك، فإن المحاكمة ستستأنف أمام الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

ويا أيها المظلوم: لا تحزن على ما فاتك من حق، فإن حقك محفوظ عند الله تعالى، وسيرده لك حسناتٍ كثيرةً، فى يوم أنت أحوج ما تكون فيه إلى حسنة واحدة.

قال ﷺ: «لَتُؤَدَّنَّ الحقوقُ إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقَادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[٣].

وقال ﷺ: «إن الله لَيُمْلى للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلِته». ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة، إن أخذه أليم شديد﴾[٤].

اللهم إنَّا نعوذ بك أن نَظْلِم أو نُظْلَم، اللهم أعنّا على إعطاء كل ذى حق حقه.

---

(١) التذكرة. للقرطبى (٢٧١ و ٢٧٢).

(٢) متفق عليه: رواه خ (٢٤٤٨/ ١٠٠/ ٥)، م (١٩/ ٥٠/ ١)، د (١٥٦٩/ ٤٦٧/ ٤)، ت (٦٢١/ ٦٩/ ٢)، جه (١٧٨٣/ ٥٦٨/ ١)، نس (٥٢/ ٥).

(٣) صحيح: رواه م (٢٥٨٢/ ١٩٩٧/ ٤)، ت (٢٥٣٥/ ٣٧/ ٤).

(٤) متفق عليه، رواه: خ (٤٦٨٦/ ٣٥٤/ ٨)، م (٢٥٨٣/ ١٩٩٧/ ٤)، ت (٥١١٠/ ٣٥١/ ٤)، جه (٤٠١٨/ ١٣٣٢/ ٢).

الميزان

يقول الله تعالى: ﴿فإذا نُفخَ فى الصُّورِ فلا أنسابَ بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثَقُلت موازينهُ فأولئك هم المفلحون * ومن خَفت موازينُهُ فأولئك الذين خَسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تَلفَحُ وجُوهَهُمُ النارُ وهم فيها كالحُون * ألم تكن أياتى تُتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * قالوا ربنا غَلَبَتْ عَلينا شقَوتُنا وكنا قومًا ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظَالمُون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريقٌ من عبادى يقولون رَبَّنَا آمنا فاغفر لنا وارحَمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتمُوهم سخريًا حتى أنسَوكُم ذكرى وكنتم منهم تَضحكُون * إنى جَزيتُهُم اليوم بما صَبَروا أنهم هم الفائزون * قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فسَئل العَادِّين * قال إن لبثم إلا قليلا لو أنكم كنتم تَعلَمُون * أفَحَسِبتُم أنما خلقناكم عَبَثًا وأنكم إلينا لا تُرجعون * فتعالى اللَّه الملك الحق لا إله إلا هو ربُّ العرشِ الكريم * ومن يدع مع اللَّه إلهاً آخر لا بُرهَان له به فإنما حسَابُهُ عند ربه إنه لا يفلحُ الكافرون * وقل رب اغفر وارحم وأنت خيرُ الراحمين﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١١٨].

ابن آدم :

تذكَّرْ يومَ تأتى اللَّهَ فردا	وقد نُصبَتْ موازينُ القضاء
وهتّكتِ الستورُ عن المعاصى	وجاء الذنبُ مُنْكَشِفَ الغطاءِ

بعد الحساب والقصاص يكون الميزان، ووزْنُ الأعمالِ ثابت بالكتاب والسنة

وإجماع الأمة: قال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿والوزن يومئذ الحق، فمن ثَقُلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

وقال تعالى فى سورة الكهف: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسَرين أعمالاً؟ الذين ضلّ سعيُهُم فى الحياة الدنيا وهم يَحسَبون أنهم يُحسنون صُنعا * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقآئه فحبطت أعمالهم فلا نقيمُ لهم يوم القيامة وزنا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥].

وقال تعالى فى سورة الأنبياء: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً * وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكفى بنا حاسبين﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال تعالى فى سورة المؤمنون: ﴿فَمَنْ ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومَنْ خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون﴾ [المؤمنون: ١٠٢ - ١٠٣].

وقال تعالى فى سورة القارعة: ﴿فأما من ثقلت موازينه * فهو فى عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاويه * وما أدراك ما هيه * نار حامية﴾ [القارعة: ٦ - ١١].

وقال النبى ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده. سبحان الله العظيم»(١).

وقال ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان ....»(٢).

وأجمعت الأمة على أن أعمال العباد توزن يوم القيامة أمام الله تبارك وتعالى بميزان حسِّى، له لسان وكفتان، الكفة الواحدة تسع ما بين السموات والأرض.

والوزن يوم القيامة يكون بعد الفراغ من الحساب، لأن الحساب إنما هو تقرير للعباد بأعمالهم، وأما الوزن فإنما هو لإظهار مقادير الأعمال، وعلى حسب قدر الأعمال يكون الجزاء.

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٦٤٠٦/٢٠٦/١١)، م (٢٦٩٤/٢٠٧٢/٤)، ت (٣٥٣٤/١٧٤/٥).

(٢) صحيح: رواه م (٢٢٣/٢٠٣/١)، ت (٣٥٨٣/١٩٦/٥)، نس (٥ و ٦/٥).

وقد اختلف العلماء: ماذا يوزن يوم القيامة؟ أتوزن الأعمال نفسها؟ أم صحائف الأعمال؟ أم الإنسان نفسه؟

وأرجح الأقوال أن الأعمال والصحائف وصاحب العمل، كلٌ يوضع على الميزان: الحسنات فى كفة والسيئات فى كفة، والعبد بينهما **﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾** [الأعراف: ٨، ٩].

ولا يتعجب متعجب، ولا يقولن قائل: كيف توزن الأعمال يوم القيامة وهى أعراض لا أجسام، والأعراض لا توزن؟ فإننا نقول: إنه إذا كان يوم القيامة حوّل الله تعالى الأعراض إلى أجسام، فجعل الأعمال أجساماً تثقل وتخف حسب الحسنة والسيئة.

وقد علمنا من الأحاديث الصحيحة: «أن الميت إذا وضع فى قبره أتاه عمله إن كان صالحاً فى صورة شاب حسن المنظر، جميل الثياب، طيب الرائحة، فإذا رآه الميت قال: من أنت؟ فوجهك الوجه الذى يدل على الخير ويبشِّر به؟ فيقول: أنا عملك الصالح، أبشر بالذى كنت توعد أبشر بجنة عالية. وأما إن كان العمل غير صالح فإنه يتمثل لصاحبه فى صورة رجل أسود الوجه، قبيح المنظر، منتن الرائحة، فيقول له الميت: من أنت؟ فوجهك الوجه الذى يدل على الشر ويبشِّر به؟ فيقول: أنا عملك السيء، أبشر بالذى كنت توعد، أبشر بنار حامية»[1].

فهاهو ذا العمل قد تمثّل لصاحبه رجلاً في قبره.

كما أن رسول الله ﷺ أخبرنا أنه إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، ولم يبق فى النار إلا أهل الخلود، وهم كل من مات على الكفر والشرك، إنه «يؤتى بالموت على صورة كبش أغَرّ، فيذبح بين الجنة والنار، وينادى: يا أهل الجنة

---

(١) صحيح: رواه أ (٥٣/ ٧٤/ ٧).

خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت»[1].

فهـا هو ذا رسول الله ﷺ قد أخبـرنا أن الأعراض تنقلب أجسـاماً بإرادة الله وقدرته.

وكذلك الأعـمال تنقلب أجـساماً يوم الـقيامـة، ثم توضع الحسنات فى كـفة والسيئات فى كفة، ثم توزن. والناس عند الميزان ثلاثة أقسام:

فمن ثقلت موازينه ولو بحسنة واحدة فقد فاز وأنجح وأفلح.

ومن خفّت موازينه ولو بسيئة واحدة فقد خاب وخسر.

ومن استوت موازينه وتساوت فلم تثقل الحسنات ولا السيئات، فهؤلاء يكونون على جـبل بين الجنة والنار يقال له الأعـراف، فإذا نظروا إلى الجـنة ورأوا ما فـيه أهلها من النعيم **﴿نادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم﴾**. **﴿وإذا صُرِفَتْ أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾** [الأعراف: ٤٦، ٤٧].

فأهل الأعراف إذن: قـوم استوت حسناتهم وسيـئاتهم، فقعدت بهم سـيئاتهم عن دخول الجنة، ومنعـتهم حسنـاتهم من دخول النار. ثم يتغـمدهم الله برحمـته ويدخلهم الجنة.

ومن هنا نقول: إن على المسلم أن لا يستهين بعمل صالح وإن قلّ، فإن حسنة واحدة قـد تُدْخله الجنة، وعليه أن لا يـستهين بعـمل سيىء وإن قلّ، فـإن سيـئة واحدة قد تدخله النار.

وإذا علمنا أن أصح أقوال العلماء أن العـامل يُوزَن مع عمله، فلنعلم أن ثقل الإنسان وخفّتـه لن تكون بحسب ثقل بدنه وخفّته، وإنما سيكون التـأثير فى الميزان بما فى القلب من الإيمان، فإن كان القلب مليئـاً بالإيمان أثّر ثقله فى كفة الحسنات، وإن كـان فارغـاً من الإيمان، والبدن قـد امتـلأ باللحم والشـحم لم يؤثر ذلك فى

(١) متفق عليه: رواه خ (٤٧٣٠/٤٢٨/٨)، م (٢٨٤٩/٢١٨٨/٤).

الميزان. وقـد نطق بذلك الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ، فقـال: «إنه ليأتى الرجل السمين العظيم لا يزن عند الله جناح بـعوضة». ثم قال: «اقرءوا إن شـئتم: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾ »[١].

ويقول ﷺ فى حق ابن مسعود، وقد صعد الشجرة يوماً يجنى لرسول الله ﷺ من ثمـرها، فبـدت ساقـاه ـ وكانتـا رفيعـتين ـ فضحك القـوم، فقـال ﷺ: «مِمَّ تضحكون؟» قالوا: من دقة ساقيـه يا رسول الله، فقال ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنهما لأثقل فى الميزان من جبل أحد».

ومن المبشرات ما رواه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سيـخلص رجلاً من أمتى على رءوس الخـلائق يوم القيامة، فـينشر عليه تسـعة وتسعين سجلاً، كل سـجل مثل مدّ البصـر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول: لا، يارب. فيقول: أفَلَكَ عُذْرٌ؟ قال: لا، يارب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهـد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. فيـقول: احضرْ وزنك، فيقول: يارب. ما هذه البطاقة مع هذه السـجلات؟! فيقول: إنك لا تُظْلم. قال: فـتوضع السـجلات فى كـفـة، والبطاقة فى كـفة، فـطاشت السجـلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شىء»[٢].

«أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله»[٣]. «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحـوا»[٤]. قولوها وأحلّوا حلالها، وحرّمـوا حرامها، ولا تتكلوا

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٤٧٢٩/٤٢٦/٨)، م (٢٧٨٥/٢١٤٧/٤).

(٢) صحيح: رواه ت (٢٧٧٦/١٣٣/٤).

(٣) حسن: رواه ما (٩٥٥/٢٩١).

(٤) رواه: كم (١/١٥)، (٢/٦١٢).

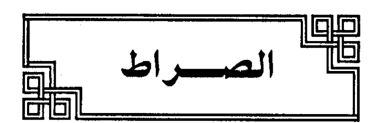
على القول باللسـان فقط، فإن لاإله إلا الله مـفتاح الجنة، ولابد لكل مفـتاح من أسنان، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا فلا[1].

واعلمـوا أن مـا ذكـر فى حـديث البطـاقـة إنما هو فى حق رجل أراد الله أن يرحمه، وإلا فـإن لكل موحّد مثل هذه البطاقة ومع ذلك فإن كـثيراً منهم يدخلون النار.

اللهم ثَقِّلْ موازيننا وبَيِّضْ وجوهنا واجعلنا من أصحاب اليمين.

* * *

(١) رواه: خ (٣/١٠٩) تعليقاً، وقال الحافظ: وصله المصنف فى التاريخ وأبو نعيم فى الحلية.



الصـــراط

يقول الله تعالى: ﴿**ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا * أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا * فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا * ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا * ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا * وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا * ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا**﴾ [مريم: ٦٦ - ٧٢].

إذا فرغ الله تعالى من محاسبة عباده، ووُزنَتِ الأعمال، وظهرت النتائج لم يبق إلا أن ينال كلٌ جزاءه على حسب عمله إن كان صالحاً فمآله إلى الجنة، وإن كان غير صالح فمآله إلى النار.

وليس هناك طريق إلى الجنة إلا طريق جهنم، فلا يستطيع أحد أن يصل إلى الجنة إلا بالمرور فوق الصراط الذى نُصِبَ على ظهرانى جهنم، وما أدراك ما الصراط، مدحضة مزلة، على جانبيه خطاطيف وكلاليب وحسك كشَوْكِ السعدان، لا تثبت عليه الأقدام إلا أقدام الذين ثبتهم الله بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

وأما الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا فإنهم ما إن يضعوا أقدامهم على هذا الصراط حتى تتخطفهم الكلاليب من الجانبين، فتقذف بهم فى جهنم.

وهذا كله قد فصّله لنا رسول الله ﷺ تفصيلاً دقيقاً، وصوره تصويراً رائعاً فى أحاديث طوال، رواها الشيخان البخارى ومسلم[١]، ومعناها هذا الذى نذكره:

(١) متفق عليه: رواه خ (٧٤٣٩/ ٤٢٠ - ٤٢٢/١٣)، م (١٨٣/ ١٦٧ - ١٧١/ ١).

يجمع الله تبارك وتعالى العبـاد فى ساحة واحدة، ثم ينادى منادٍ: أيها الناس، أليس عـدلاً من الله تعـالى أن يولِّى كل إنسـان إلهـه الذى كان يـعبـد فى الدنيـا؟ فيقولون: بلى وربنا.

فينادى المنادى: لِتَتَّبِعْ كلُّ أمـةٍ ما كانت تعبد فى الدنيـا. فيتصـور لكل قوم ما عبدوا فـيتبعـونه، يتبع عَبَدَةُ الشمسِ الشـمسَ، ويتبع عبدةُ القـمرِ القمـرَ، وعبدةُ الأصنامِ الأصنامَ، وهكذا تتميَّز كل أمة مع إلهـها الذى كانت تعبد ـ من دون الله ـ وتبقى هذه الأمة المحمدية فيها منافـقوها والمنافقون يعلمون من قرارة أنفسهم أنهم ما عبـدوا الله، فإنهم كانوا فى الدنيـا يُبْطِنون الكفر ويُظْهِرون الإيمان، يصلّون ولا صلاة لهم، ويـصومون ولا صـوم لهم، ويحجّون ولا حج لهم، لأنهـم إنما كانوا يفعلون كل هـذه العبادات نفـاقاً ورياء، وتقيـة، هرباً من السيف أو الجـزية، فلما نفعهم النفاق في الدنيا ومنع عنهم السيف والجزية ظنوا أن النفاق ينفعهم أيضاً يوم القيامة، فتستروا بـالمؤمنين راجين أن يَخْفَى أمرُهم فى الآخرة كما خفى فى الدنيا. فيأتيهم الربّ عـزّ وجلّ فى صورة لا يعرفونه بها، فيقـول لهم: يا عبادى ألم تتبع كل أمة إلهها الذى كانت تعبد، فلِمَ لا تتـبعون إلهكم؟ فيقولون: نعوذ بالله منك، ما عبدنا غير الله، وما نحن بمنصرفين من هنا حتى يـأتينا ربنا فنعرفه فنتبعه. فيقول الرب عـزّ وجلّ: وهل بينكم وبين ربكم علامـة تعرفـونه بها؟ فـيقـولون: نعم، الساق. فيكشف ربـنا عن ساقه فيسـجد له كل مؤمن، ويبقى من كـان يسجد رياء وسمـعة فيذهب كـيما يسجـد فيعـود ظهره طَبَقًا واحدًا، كلما أراد أن يسـجد خَرَّ لقفاه.

وفى ذلك يقول ربنا عزّ وجلّ: **﴿يوم يُكْشَفُ عن ساق، ويدعون إلى السجود فلا يستطيعـون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة، وقـد كانوا يُدْعَوْنَ إلى السجود وهم سالمون﴾** [القلم: ٤٢، ٤٣].

كانوا يدعون إلى الصلاة وهم سالمون فى الـدنيا، قادرون على الانحناء ركوعاً وسجـوداً، فرفـضوا أن يسـجدوا لله، فلمـا لـم يسجدوا وهم سـالمون أرادوا يوم القيامة أن يسجدوا، فحيل بينهم وبين ما أرادوا.

فيا ابن آدم حافظْ عـلى الصلاة، وأكثِرْ من السجود، فإن كثـرة السجود سبب دخول الجنة.

فعن ثوبان مولى رسـول الله ﷺ أنه كان يبيت مع رسول الله فيـأتيه بوضوئه ونحو ذلك. فقال له رسـول الله ﷺ ذات ليلة: يا ثوبان، سَلْنى. قال: يا رسول الله أسألك مرافـقتك فى الجنة. قال: أو غيـر ذلك. قال: هو ذاك يا رسول الله، فقال ﷺ: «فأعنِّى على نفسك بكثرة السجود، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحطّ عنك بها خطيئة»[1].

والساق المذكورة فى الآية والحديث صفة من صفات الرب عزّ وجلّ، كالقدم، واليد، والوجه، والعين، ونحو ذلك من صفات الرب عزّ وجلّ، التى تليق بجلاله، والتى يجب علينا الإيمان بها من غـير تحريف ولا تعطيل، ولا تشبـيه ولا تكييف، فلا نقـول: يـد الله كأيدينا، ولا عـين الله كـأعيننا، ولا نقول: يـد الله قدرتـه، ولا عين الله: رعايتـه، لا نشبّه ولا نحرّف الكلم عن مـواضعه، وإنما نثـبت لله ما أثبته الله لنفسـه فى محكم كتابه أو على لسان رسوله، من غيـر تشبيه ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تحريف ﴿**ليس كمثلة شىء، وهو السميع البصير**﴾ [الشورى: ١١].

ساقُ الله لا كـساق العبد، ولا يـد الله كيد العبـد، وإنما صفات الله كـما يليق بجلاله، وصفات العبد كما يليق بضعفه وعجزه وافتقاره.

إذن بعد هذه الـعلامة يمتـاز المنافقـون عن المؤمنين. ثم يُجْعل أهل الموقف فى ظلمة دون الجسر، ثم توزع عليهم أنوار عـلى حسب إيمان كل واحد وعمله، فمن

---

(١) صحيح: رواه م (٤٨٩/٣٥٣/١)، د (١٣٠٦/٢٠٢ و ٢٠٣/٤)، نس (٢٢٧/٢).

الناس من يكون نوره كـالجبل، ومنهم من يكون نوره كـالنخلة، ومنهم من يكون نوره كـقامـة الرجل، ومنهم من يُعْطى نوراً على إبهـام قدمـه يضيء تارة ويطفيء أخرى.

ثم يؤمـر أهل الموقف أن يجوزوا الصـراط. قال ﷺ: «وأنا وأمـتى أول من يجوز، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، وكلامهم: اللهم سلِّمْ سَلِّمْ».

وترسل الأمانة والرحـم فيقـومان جنبتى الصـراط، تشهـد الأمانة لمن أدّاها، وتشهـد الرحم لمن وصلها، وتشهـد الأمانة على الخائن، وتشـهد الرحم على من قطعها. فأدّوا الأمانات **﴿واتقوا اللَّه الذى تساءلون به والأرحام﴾** [النساء: ١].

والناس يتفاوتون فى مرورهم على هذا الصراط، الذى وصفه رسول الله ﷺ أنه أدَقُّ من الشعرة وأحَدُّ من السيف، فمنهم من يمر كراكب جواد، ومنهم من يمرّ كالطير، ومنهم من يمر مرور البرق، ومنهـم من يمر يجرى على قدميه، ومنهم من يمشى مشـيًا بطيئًا، ومنهم الذى يتلبّط على بطنه، يرفع يداً ويضع أخـرى، تَجاوزَ الناسُ وتأخّر هو، فيرفع رأسه ويقول: يارب. لِمَ أبطأت بى؟ فيقول الرب سبحانه: ما أبـطأتُ بك، إنما أبطأ بك عملك. حـتى إذا دنا المنافقـون من الصراط أطفـئت أنوارهم، وصاروا فـى ظلمة، **﴿هنالك ابـتلى المؤمنون وزلزلوا زلـزالاً شـديداً﴾** [الأحزاب: ١١]. وخافـوا على أنوارهم أن تُطْفَأ، فدعـوا ربهم: **﴿ربنا أتمم لـنا نورنا واغفر لنا، إنك على كل شىء قدير﴾** [التحريم: ٨].

ونادى المنافقـون على المؤمنين: **﴿انظرونا نقتـبس من نوركم * قيل ارجـعوا وراءكم فـالتمسـوا نورا﴾** [الحـديد: ١٣]، وهذا من خـداع الله واسـتـهـزائه بهم: **﴿يخادعون اللَّه والذين آمنوا ومـا يخدعون إلا أنفسهم ومـا يشعرون ﴾** [البقرة: ٩]، **﴿اللَّه يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون﴾** [البقرة: ١٥].

﴿فَضُرِبَ بينهم بسور له باب، باطنه فيـه الرحمة، وظاهره من قِبَلِهِ العذاب﴾

ينادونهم: ألم نكن معكم؟ قالوا: بلى، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم وغرّتكم الأمانى حتى جاء أمر اللّه وغرّكم باللّه الغرور * فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا، مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير﴾ [الحديد: ١٣].

إن الناس إذا ركبوا الصراط كانوا أقساماً ثلاثة:

رجل يمر سالماً، لا تخدشه الخطاطيف ولا تمسّه النار.

ورجل يمر فيخدش، ثم ينجو.

ورجل يكب على وجهه فى نار جهنم، تتخطفه الكلاليب والخطاطيف التى على جانبى الصراط. وقد أخبر رسول الله ﷺ عما يكون من آخر رجل يمر على الصراط فقال:

«آخر من يدخل الجنة رجل يمشى مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا جاوزها التفت إليها فقال: تبارك الذى نجّانى منكِ، لقد أعطانى الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: أىْ رَبِّ! أدْننى من هذه الشجرة فلأستظل بظلها وأشرب من مائها، فيقول الله: يا ابن آدم: لعلى إن أعطيتكها سألتنى غيرها؟ فيقول: لا، يارب، ويعاهده أن لا يسأله غيرها، وربّه يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هى أحسن من الأولى، فيقول: أى رب، أدننى من هذه الشجرة لأشرب من مائها، وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها. فيقول: يا ابن آدم: ألم تعاهدنى أن لا تسألنى غيرها؟ فيقول: لعلى إن أدنيتك منها تسألنى غيرها؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة، هى أحسن من الأولَيَيْنِ، فيقول: أى رب، أدننى من هذه فلأستظل بظلها وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها. فيقول: يا ابن آدم: ألم تعاهدنى أن لا تسألنى غيرها؟ قال: بلى

يارب! هذه لا أسألك غيرها، وربه يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها فإذا أدناه منها سمع صوت أهل الجنة، فيقول: أى رب أدخلنيها. فيقول: يَا ابن آدم، ما يَصْرِينى منك(*)؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: أى رب، أتستهزىء منى وأنت رب العالمين؟ فضحك ابن مسعود راوى الحديث ثم قال: ألا تسألونى: مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ فقال: هكذا ضحك النبى ﷺ، فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: مِنْ ضَحِكِ ربِّ العالمين حين قال: أتستهزىء منى وأنت رب العالمين؟ فيقول: إنى لا أستهزىء منك، ولكنى على ما أشاء قدير»[1].

فيا ابن آدم: سل نفسك هل أنت من المارّ السالم؟ أم من المارّ المخدوش؟ أم أنك من الذين يكبون على وجوههم فى نار جهنم؟

يا ابن آدم: سل نفسك: هل أدّيت الأمانة؟ ووصلت الرحم؟ إن الأمانة والرحم تقومان جنبتى الصراط يوم القيامة، فأدِّ الأمانة، وصل الرحم، «وتوهّم نفسك إذا صرت على الصراط، ونظرت إلى جهنم تحتك، سوداء مظلمة، قد لظى سعيرها، وعلا لهيبها، وأنت تمشى أحياناً وتزحف أخرى، فتفكر الآن فيما يحل بك من الفزع، إذا رأيت الصراط ودقّته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرعَ سمعَك شهيقُ النار وتغيُّظها، وقد كُلِّفْتَ أن تمشى على الصراط، مع ضعف حالك، واضطراب فؤادك، وتزلزل قدمك، وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك من المشى على بساط الأرض، فضلاً عن حدة الصراط، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدته، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانى، والخلائق بين يديك يزلون ويعثرون، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف

(*) معنى «ما يَصْرِينى منك» أى: أىُّ شىء يُرْضيك ويقطع السؤال بينى وبينك. والصَّرْىُ: هو القطع.

(١) صحيح: رواه م (١٨٧/ ١٧٤ و ١٧٥/ ١).

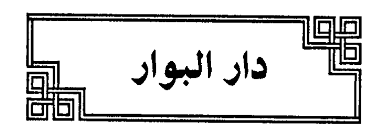
والكلاليب، وأنت تنظر إليـهم كيف ينكسـون، فتسـفل إلى جهـة النار رءوسهم، وتعلو أرجلهم، فـيـا له من منظرٍ مـا أفظَعَه؟! ومُرْتَقًى ما أصـعبـه؟! ومـجازٍ مـا أضيقه؟!»[1] اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ.

فاتق الله فى نفـسك، واعلم أن الله قد ضرب لك صراطاً مـستقيـماً فى هذه الدنيا تسـير عليه، فمـتى استقمت على هذا الصـراط اتسع لك الصراط الذى فى جهنم، ومتى تخـطفتك الشهوات والملذات عن هذا الصراط تخـطفتك بقدر ذلك الكلاليبُ التى على جـانبى الصراط فى جـهنم ﴿وإن مِنكُم إلا واردُها كـان على ربك حتما مقضيًا * ثم نُنَجِّي الذين اتقوا ونَذرُ الظالمين فيها جِثِيا﴾ . [مريم: ٧٢]

اللهم اجعلنا من المتقين ولا تجعلنا مع الظالمين.

* * *

(١) التذكرة. للقرطبى (٣٣٢).



دار البوار

يقول الله تـعالى: ﴿وما خلـقنا السمـوات والأرض وما بينهـما لاعـبين * ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون * إن يـوم الفَصل ميقاتُهُم أجمعين * يوم لا يُغنى مَولىً عن مَّولىً شيئاً ولا هم ينصرون * إلا من رحم اللّه إنه هو العزيز الرحـيم * إن شَجَرَةَ الزَّقـُّوم * طعـام الأثيم * كـالْمُهل يغلى فـى البطون * كَغَلْيِ الحـميم * خُذُوهُ فـاعـتِلُوه إلى سواء الجـحيـم * ثم صُبُّوا فوق رأسِه من عـذاب الحميم * ذق إنك أنت العـزيز الكريم * إن هذا ما كنتم به تمتَرُون * إن المتقين فى مقام أمين * فى جنات وعيـون * يلبسون من سُندُسٍ وإستبرق مـتقابلين * كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فـاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتَةَ الأولى ووقاهم عـذاب الجحيم * فضلا من ربك ذلك هو الفـوز العظيم * فإنما يسرناه بلسانِكَ لعلهم يتذكرون * فارتقب إنهم مرتقبون﴾ [الدخان:٣٨ - ٥٩].

تحدثنا عـن الصراط، وما أدراك مـا الصراط، مـدحضـة مزلة لا تثبت عـليه الأقدام إلا أقدام الذين ثبتهم الله بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

وقلنا : إن الناس فوق الصراط أقسام:

منهم من يمر مرور البرق، ومنهم من يمر كلمح البـصر، ومنهم من يمر كراكب جواد، ومنـهم من يمر يجرى جـرياً سريعـاً، ومنهم من يحبـو على بطنه يرفع يدا ويضع أخرى، ومنهم من تخـدشه كلاليب جهنم ثـم ينجو، ومنهم من يكب على وجهه فى أسفل سافلين فى النار.

الذين يكبون على وجوههم فى النار قسمان: كافـرون ماتوا على غير الإسلام،

ومسلمون ماتوا مصرِّين على كبائر لم يتوبوا منها، ولم يشأ الله أن يعفو عنهم.

أما المسلمون الذيـن كبوا على وجوههم فى النار، فإنهم بـعد أن يتطهروا من دنس المعاصى التى لم يتطهـروا منها بالتوبة فى الدنيا، يخـرجهم الله بعد ذلك من النار برحمته، وشفاعة الشـافعين من أهل طاعته. ففى الحديث: «أن الرسول ﷺ يستأذن ربه فى الشفاعة فيمن دخل النار من أمته، فيأذن له الرب عزّ وجلّ، ويحدّ له حدًّا، فيـذهب فيخرجهم، ثم يجىء فـيستأذن، فيـأذن له الرب ويحدّ له حدا، فيذهب فـيخرجهم، ثم يعـود فيستـأذن، فيأذن له الرب، ويحد له حـدا، فيذهب فيخرجهم. حتى لا يبـقى فى النار من المسلمين إلا من قال: لا إله إلا الله، فيقول النبى ﷺ: يا رب، ائذن لى أن أخرِج منها من قـال: لا إله إلا اللَّه، فيقول أرحم الراحمين سبحانه فى علاه: يا مـحمد، ليس هذا لك، وعزّتى وجلالى، لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله»[1].

حتى إذا أخْرِجَ أهلُ التوحيد من النار ولم يَبْقَ فـيها إلا كل من مات على غير لا إله إلا الله، أغلقت النار عليهم ﴿**إنها عليهم مؤصدة * فى عَمَدٍ ممدّدة**﴾ [الهمزة: ٨، ٩] فماذا يجدون فيها؟

إن كثيراً من الناس يستهينون بالنار، ولا يقدرونها حق قدرها، ولكننا إذا أزحنا الستار عمـا جاء فى القرآن الكريم من آيات حول النار، وأزحنا الستـار كذلك عما جاء فى السنة المطهَّرة من أحـاديث حول النار، لو فعلنا لطارت أفـئدة العباد خـوفاً منها، وما وجدوا للنوم راحة، ولا عرفوا إليه سبيلاً.

إن جهنم سمّاها ربنا عزّ وجلّ دار البوار:

﴿**ألم تَرَ إلى الذين بدّلوا نـعمـة اللَّه كـفـرا وأحلّو قومـهم دار البـوار. جـهنم يصلونها وبئس القرار**﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٧٥١٠/٤٧٣/١٣)، م (١٩٣ - ٣٢٦ - /١٨٢/١).

هذه الدار لها سبعة أبواب:

قال تعالى: ﴿**وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب، لكل باب منهم جزء مقسوم**﴾ [الحجر: ٤٣، ٤٤].

أما سعتها، فقد قال ﷺ: «**يؤتى يومئذ بجهنم لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرونها**»[١].

وأما عُمْقُها وبُعْدُ قعرِها. فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ سمع وجبة، فقال ﷺ: «**تدرون ما هذا؟**». قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**هذا حجر رُمى به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوى في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها**»[٢].

وأما درجة حرارتها: فليس معنا من أجهزة قياس درجات الحرارة ما نستطيع به أن نعرف كم درجة حرارة نار جهنم، وإنما نسوق حديثاً من الأحاديث التى وردت فى هذا الشأن، ومنه نستطيع أن نعرف عظم درجة حرارة جهنم.

قال رسول الله ﷺ: «**إن ناركم هذه التى توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم**». قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. قال: «**ولكنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً**»[٣]. فقيسوا درجات حرارة نار الدنيا وزيدوا عليها سبعين ضعفاً، تعلمون كم تكون درجة حرارة النار فى جهنم.

والنار ليست طبقة واحدة، وإنما هى دركات بعضها أسفل من بعض، والله تعالى يقول: ﴿**إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار**﴾ [النساء: ١٤٥].

والناس فى جهنم يتفاوتون فى العذاب، فقد جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح: رواه م (٢٨٤٢/ ٢١٨٤/ ٤)، ت (٢٦٩٨/١٠٣/ ٤).

(٢) صحيح : رواه م (٢٨٤٤/ ٢١٨٤/ ٤).

(٣) متفق عليه: رواه خ (٣٢٦٥/ ٣٣٠/٦)، م (٢٨٤٣/ ٢١٨٤/ ٤)، ت (٢٧١٥/ ١١٠/ ٤).

أنه قال: «منهم من تـأخذه النار إلى كعـبيه، ومنهم من تأخـذه النار إلى ركبتـيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجزته(*)، ومنهم من تأخذه النار إلى تَرْقُوَته»[١].

وأخف أهل النار عـذاباً أبو طالب، عم النبى ﷺ، أترون كـيف يكون هذا العذاب الذى هو مـن أهون العذاب؟ قال ﷺ: «أهون أهل النار عـذاباً أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلى منهـما دماغه»[٢]. وقـال ﷺ: «إن أهون أهل النار عـذاباً من له نعلان وشراكان من نار، يغلى منهمـا دماغه، كما يغلى المرجل، ما يرى أن أحداً أشد عذاباً منه، وإنه لأهونهم عذاباً»[٣].

وقد ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم طبقات النار:

فمنها: لظى ﴿نزَّاعـة للشَّوى * تدعـوا من أدبـر وتولى * وجـمع فـأوعى﴾ [المعارج: ١٦ - ١٨].

ومنها: سقر ﴿وما أدراك ما سقر؟. لا تُبْقِى ولا تَذَرُ. لَوَّاحة للبشر. عليها تسعة عشر﴾ [المدثر: ٢٧ - ٣٠].

ومنهـا: الحُطَمَة ﴿ومـا أدراك مـا الحُطَمَة؟ نار اللَّه المـوقـدة. التى تـطلّع على الأفئدة﴾ [الهمزة: ٥ - ٧].

ومنها: الهاوية ﴿وما أدراك ما هية؟ * نار حامية﴾ [القارعة: ١٠، ١١].

ومنها: جهنم ﴿إن جهنم كانت مرصـادا. للطاغـين مآبا. لابثـين فيهـا أحقابا. لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا. إلا حميماً وغسّاقا﴾ [النبأ: ٢١ - ٢٥].

وأهل النار فيها لا يموتون، وإنما هم أحياء، والحـياة تستلزم أموراً لا غنى عنها

(*) حُجْزته: حقويه، وهما معقد الإزار، والمراد هنا ما يحاذى ذلك الموضع من جنبيه.

(١) صحيح: رواه م (٢٨٤٥/٢١٨٥/٤)، د (٤٢١/٩٣/٢)، جه (١٤٠١/٤٤٩/١)، نس (٢٣٠/١).

(٢) صحيح: رواه م (٢١٢/١٩٦/١).

(٣) صحيح : رواه م (٢١٣/١٩٦/١).

للحيّ، فلا غنى للحيّ عن الطعام، ولا غنى له عن الشراب، ولا غنى له عن اللباس، وأهل النار ما داموا أحياء فلهم ثياب يلبسونها، ولهم ألوان من الأطعمة يأكلون منها، ولهم أشربة يشربون منها.

فمن أى نسيج نسجت ثياب أهل النار؟ اسمعوا ماذا يقول ربنا: **﴿وترى المجرمين يومئذ مقرّنين فى الأصفاد. سرابيلهم من قطران﴾** [إبراهيم: ٤٩، ٥٠]، إن الثياب التى يدخلها النايلون تحترق إذا شمت رائحة النار، فكيف بثياب القطران.

ويقول ربنا: **﴿هذان خصمان اختصموا فى ربهم، فالذين كفروا قطِّعَت لهم ثياب من نار﴾** [الحج: ١٩].

يقول ابن عباس رضى الله عنهما: تبارك الذى جعل من النار ثياباً لأهل النار.

أما طعامهم فحدِّث ولا حرج، عندهم أنواع من الأطعمة مختلفة:

الأول: الزَّقُّوم، وشجرة الزقوم قد ذُكِرَت فى القرآن فى أكثر من آية.

فى سورة الدخان، يقول ربنا: **﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون * كغلى الحميم﴾** [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

وفى سورة الصافات، يقول ربنا: **﴿أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم * إنا جعلناها فتنة للظالمين * إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طَلْعُها كأنه رءوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون﴾** [الصافات: ٦٢ - ٦٦].

ويقول الرسول ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم»[1] فكيف بمن يكون طعامه؟

والثانى: الغِسْلين، وهو ما يسيل من جراحات أهل النار من دم وقيح وصديد.

قال تعالى: **﴿خذوه فغلُّوه * ثم الجحيم صَلُّوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه * إنه كان لا يؤمن باللَّه العظيم * ولا يحضُّ على طعام المسكين *﴾**

---

(١) صحيح: رواه ت (٢٧١١/١٠٧/٤).

فليس له اليوم ههنا حميم * ولا طعام إلا من غِسْلين * لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٧].

والثالث: الضريع، وهو الذى قال الله عنه فى سورة الغاشية:

﴿وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى نارا حامية * تُسْقَى من عين آنية * ليس لهم طعام إلا من ضريع * لا يسمن ولا يغنى من جوع﴾ [الغاشية: ٢ - ٧].

وأما الشراب: فيشربون من الحميم، وهو الماء الذى اشتدت درجة غليانه:

قال تعالى: **﴿ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم﴾** [الصافات: ٦٧]. **﴿وسُقُوا ماء حميما فقطَّعَ أمعاءهم﴾** [محمد: ١٥]. **﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه﴾** [الكهف: ٢٩].

ولهم شراب آخر من نهر الغوطة. أتدرون ما نهر الغوطة؟ إنه نهر يخرج من فروج المومسات، يُؤذى أهلَ النارِ ريحُه.

إن أهل النار إذا دخلوها تصلاهم وتغمرهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم **﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غَوَاش﴾** [الأعراف: ٤١]. **﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾** [الزمر: ١٦]. **﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾** [العنكبوت: ٥٥].

وهم مع ذلك مقيَّدون بالسلاسل والأغلال، فلا يستطيعون أن يدفعوا عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم. يقول تعالى: **﴿إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا﴾** [الإنسان: ٤]. ويقول تعالى: **﴿إن لدينا أنكالا وجحيما * وطعاما ذا غصَّة وعذابا أليما﴾** [المزمل: ١٢، ١٣].

ويقول: **﴿خذوه فغلُّوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه﴾** [الحاقة: ٣٠ - ٣٢].

تجمع الأيدى إلى الأعناق، والأرجل إلى القفا، ثم يرمى بهم فى جهنم،

فكيف يدفعون عن أنفسهم العذاب؟ ولذلك يقول ربنا عزّ وجلّ: **﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفّون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم يُنصَرون﴾** [الأنبياء: ٣٨، ٣٩].

وفى النار يَعْظُم جلدُ الكافر، ويعظُم جسمُه لِيَجِدَ من شدة العذاب ما شاء الله.

يقول الرسول ﷺ: «ما بين منكبى الكافر فى جهنم مسيرة ثلاث أيام للراكب المسرع»(١)، ويقول: «إن ضرس الكافر فى النار مثل أُحُد، وإن غلظ جلده اثنان وأربعون ذراعاً، وإن مقعده فى جهنم كما بين مكة والمدينة»(٢).

يستغيثون فيدعون خزنة جهنم أن يتوسلوا لهم إلى الله أن يجعل لهم يوماً لا يعذبون فيه: **﴿وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب * قالوا: أو لم تَكُ تأتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا: بلى * قالوا: فادعوا، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال﴾** [غافر: ٤٩، ٥٠].

فلما أيِسوا من خزنة جهنم توجهوا بالسؤال إلى رئيسهم وهو مالك **﴿ونادوا يا مالك ليقضِ علينا ربك * قال إنكم ماكثون﴾** [الزخرف: ٧٧]. قالوا: إن لنا إخوانا وأبناء وأصدقاء قد هداهم الله فأسلموا فدخلوا الجنة. هيا بنا نسألهم أن يرسلوا لنا شيئاً من عندهم **﴿ونادى أصحابُ النارِ أصحابَ الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم اللّه! قالوا: إن اللّه حرّمهما على الكافرين﴾** [الأعراف: ٥٠]. فلما أيِسوا من الخلق قالوا: إنه لا ينجيكم مما أنتم فيه إلا أن تدعو الله تعالى: **﴿قالوا: ربنا غلبت علينا شِقْوَتُنا وكنّا قوماً ضالّين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾** [المؤمنون: ١٠٦- ١٠٧]، فكان الجواب من الجبار: **﴿اخسئوا فيها ولا تُكلّمونِ﴾** [المؤمنون: ١٠٨].

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٦٥٥١/٤١٥/١١)، م (٢٨٥٢/٢١٨٩/٤).

(٢) صحيح: رواه ت (٢٧٠٦/١٠٥/٤)، كم (٥٩٥/٤).

فـانقطع الأمل وانقطع الرجـاء ولم يعد يُسْمَعُ إلا الصـراخ والعويل والدعـاء بالويل، فقيل لهم: ﴿فاصـبروا أو لا تصـبروا سواء عليكم * إنمـا تُجْزَوْنَ ما كنتم تعملون﴾ [الطور: ١٦].

ومن عجـيب ما يكون فى النار تلك الخطبـة التى يلقيهـا إبليس في أهل النار ﴿وقال الشيطان لما قُضِيَ الأمـر إن اللَّه وعدكم وعد الحق ووعدتكم فـأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصـرخكم وما أنتم بمصـرخى إنى كفرت بما أشـركتمـون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

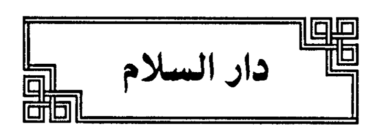
﴿هذه جهـنم التـى يكذِّب بها المجـرمون * يطوفـون بينهـا وبيـن حـميمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

فيا عـباد الله: ﴿استـجـيبـوا لربكم مـن قبل أن يـأتى يوم لا مَرَدَّ له من اللَّه﴾ [الشورى: ٤٧].

﴿ولا تكونوا كالذين نسوا اللَّه فأنساهم أنفسهم﴾ [الحشر: ١٩].

نسـأل الله أن ينجـينا وإياكم من الـنار وعذابـها، وأن يـجعلـنا من أهل الجنة برحمته وفضله.

* * *



دار السلام

كلنا قد أيقن بالموت وما نـرى له مستعداً إلا قليلاً، وكـلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها طالباً إلا قليـلاً، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى منها هارباً إلا قليـلاً، فعلام تفرحون؟، وماذا عسـاكم تنتظرون؟ الموت؟ فإنه أول وارد عليكم من الله بخير أو بِشَرٍّ، فيا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيراً حثيثاً.

﴿وسارعـوا إلى مغـفرة من ربكم وجنة عرضـها السـموات والأرض، أعدَّتْ للمتقين﴾ [آل عمران: ١٣٣].

تحدثنا فيـما مضى عن الصراط، وقلنا: إن من الناس من ينـجو سالماً، ومنهم من ينجو مخدوشاً، ومنهم من يُكَبُّ علـى وجهه فى نار جهنم، ثم تحدثنا عن دار البوار ـ أعاذنا الله منها ـ واليوم نقول:

ترى أين ذهب الذين نجـوا؟ هل تبوأوا منازلهم فى الجنة؟ أم أن هنـاك حائلاً آخر حال بينهم وبين الوصول إلى الجنة، بعد أن قطعوا الصراط وتجاوزوه؟

إن المتقين إذا تجـاوزوا الصراط إلى الناحية الثـانية من أدنى الجنة حُبِسُوا على قنطرة أخرى، على صراط آخر، بين الجنة والنار، ليـقتصّوا مظالم كانت بينهم فى الدنيا[١]، فمن كـانت له مظلمة عند أخـيه الذى سـيدخل مـعه الجنة يطلبـها منه، ويطلب الآخر السـماح والصفح والعـفو من أخيه. ولقـد تكلمنا فيمـا مضى عن القصاص يوم القيامة، وأن الحقوق تُرَدُّ إلى أهلها، وذلك قبل الصراط، فما الذى

---

(١) صحيح: رواه خ (٢٤٤٠/٩٦/٥).

أخّر هؤلاء المؤمنين؟ ما الذى أخّر القصاص بينهم ومنعــهم أنه يستردوا مظالمهم قبل أن يتجاوزوا الصراط كما استردها أهل الموقف جميعاً؟ الجواب: أن الله تعالى علم أن هذه النخبــة من المؤمنين الصالحين عندها مظالم لبــعضهــم البعض، ولكن هذه المظالم لا تأتى على كل حسناتهم، لأنها أمور ليست ذات قدر عظيم، فلذا أخّر الله تعالى القــصاص بين أهل الجنة حتى جاوزوا الصــراط، فإذا جاوزوه حبــسهم على قنطرة بين الجنة والنار ليصفّوا حــساباتهم مع بعضهم البعض، حــتى إذا فرغوا من هذا أذن لهم بدخول الجنة، بعد أن يفتحهــا رسول الله ﷺ، فقد جاء فى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ قال: «آتى باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن: من؟ فأقول: محمد. فيــقول: بك أُمِرْتُ أن لا أفتح لأحد قبلك»[١]. فرســول الله ﷺ هو أول من يقرع باب الجنة، وهو أول من يدخــلها من الأنبياء، وأمــته أول الأمم يدخلون الجنة، فإذا فتــحت الأبواب، وأُذِنَ لهم بالدخول تسابقوا إليها على قــدر أعمالهم، ولَهُمْ بمنازلهم فى الجنة أهدى بهــا من منازلهم فى الدنيا. ﴿**ويُدْخلهم الجنة عَرَّفَها لهم**﴾ [محمد: ٦]. لا يخطىء الرجلُ منزلَه فى الجنة كمــا لا يخطىء منزله فى الدنيا إذا انصرف من الجمعة.

ترى أىّ نعيم هذا الذى يراه أهل الجنة فيهــا؟ أم ماذا يلبسون؟ وبماذا يُحَلَّوْنَ؟ وماذا يأكلون؟ وماذا يشربون؟ ترى هل يصل الرجل إلى النساء فى الجنة؟

إن الجنة سمّاها ربنا دار السلام، وقد دعا ربنا عزّ وجلّ عــباده جميعاً إلى هذه الدار، وبلغــتهم الــدعوة على ألسنة المــرسلين، فمن أجــاب المرسلين فــقد أجــاب الدعوة، ودخل الجنة دار السلام، ومن لم يجب المرسلين فقدرفض الدعوة، وأنى لمن رفض الدعوة أن يدخل دار الداعى، ﴿**والله يدعوا إلى دار السلام، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ [يونس: ٢٥].

---

(١) **صحيح**: رواه م (١٩٧/١٨٨/١).

ولكل دار أبواب، فكم عدد أبواب الجنة؟

للجنة ثمانية أبواب، كما صرّح بذلك النبى ﷺ حيث قال: «من توضأ فأسبغ الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»[١]. فمن كان من أهل الصدقة نودى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصلاة نودى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد نودى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام نودى من باب الريّان. وهناك رجال تنادى عليهم الأبواب كلها ليدخلوا منها[٢]، هناك رجال تسابقوا إلى الخيرات، وتنافسوا فى الصالحات، فاجتهدوا على فعل كل خير يحبه الله تعالى، هؤلاء تنادى عليهم الأبواب كلها يوم القيامة، كل باب يريد أن يدخل منه ذلك الصالح.

أما عن سَعَتِها: فقد قال تعالى: ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض**﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال: ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض**﴾ [الحديد: ٢١].

أما بناؤها: فهى لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وطينها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ، وترابها الزعفران.

أما لباسهم فيها: فإنهم يلبسون الحرير والسندس والإستبرق، ويحلّون فيها بالذهب والفضة واللؤلؤ.

قال تعالى: ﴿**إن اللّه يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار، يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً، ولباسهم فيها حرير**﴾ [الحج: ٢٣].

---

(١) صحيح: رواه م (٢٣٤/٢٠٩/١).

(٢) متفق عليه: رواه خ (١٨٩٧/١١١/٤)، م (١٠٢٧/٧١١ و ٢/٧١٢)، ت (٣٧٥٦/٢٧٦/٥)، نس (٢٢ و ٢٣/٦).

وقال تعالى: **﴿أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار، يحلّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق ..﴾** [الكهف: ٣١].

وقال تعالى: **﴿عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق، وحلّوا أساور من فضة﴾** [الإنسان: ٢١].

وأما طعامهم: **﴿وفاكهة مما يتخيّرون. ولحم طير مما يشتهون﴾** [الواقعة: ٢٠، ٢١].

وأما شرابهم: **﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنْزِفون﴾** [الواقعة: ١٧ - ١٩].

﴿فيها أنهار من ماء غير آسِنٍ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا﴾ [الإنسان: ١٧، ١٨].

إن الحديث عن دار السلام مهما كان فصيحاً بليغاً فلن يدنو من فصاحة القرآن وبلاغته وهو يصف الجنة، فلنقتصر على قراءة بعض ما جاء فى القرآن عن وصفها:

فى سورة الإنسان يقول عزّ وجلّ: **﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا * عينا يشرب بها عباد اللّه يفجرونها تفجيرا * يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا * ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه اللّه لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا * إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا * فوقاهم اللّه شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا * ويطاف عليهم بأنية من فضة وأكواب كانت قواريرا * قواريرا من فضة قدروها تقديرا * ويسقون فيها كأسا كان مزاجها**

زنجبيلا * عينا فيها تسمى سلسبيلا * ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا * وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكاً كبيراً * عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا * إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورا﴾ [الإنسان: ٥ - ٢٢].

وفى سورة الواقعة يقول ربنا عزّ وجلّ: **﴿والسابقون السابقون * أولئك المقربون * فى جنات النعيم * ثلة من الأولين * وقليلٌ من الآخرين * على سرر موضونة * متكئين عليها متقابلين * يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين * لا يصدعون عنها ولا ينزفون * وفاكهة مما يتخيرون * ولحم طير مما يشتهون * وحور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون * جزاء بما كانوا يعملون * لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * إلا قيلاً سلاماً سلاما * وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين * فى سدر مخضود * وطلح منضود * وظل ممدود * وماء مسكوب * وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة * وفرش مرفوعة * إنا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكارا * عربا أترابا * لأصحاب اليمين * ثلة من الأولين * وثلة من الأخرين﴾** [الواقعة: ١٠ - ٤٠].

فالطعام: لحم طير وفاكهة مما يتخيّرون.

والشراب: ماء غير آسِن، لبن لم يتغيّر طعمه، خمر لذة للشارِبين، عسل مصفّى.

واللباس: حرير، سندس، إستبرق أخضر وأبيض.

وهم فيها: **﴿مفتّحَة لهم الأبواب﴾** [ص: ٥٠] لأنها دار السلام، وفتح الأبواب إشارة إلى الأمن والأمان والطمأنينة، فلا خوف: لا خوف من عدو، ولا خوف من سارق، ولا خوف من غاصب، لأنهم فى دار السلام، دار الأمن والأمان، والفرح والسرور، ولذلك لما تبوأوا منازلهم فيها قالوا كما حكى ربنا عنهم:

﴿وقالوا الحمد لـلّه الذى أذهب عنا الحَزَن، إن ربنا لغفور شكور * الذى أحَلَّنَا دار المقامة من فضله، لا يمسّنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لُغُوب﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

أما النساء فى الجنة، فحدِّث عن جمالهن بما شئت، إنهن حور عين، مقصورات فى الخيام، وَصَفَهُنَّ ربنا عزّ وجلّ تارة بأنهن ﴿كأنهن بيضٌ مكنون﴾ [الصافات: ٤٩]، وتارة بأنـهن ﴿كـأمثـال اللؤلؤ المكنون﴾ [الواقـعـة: ٢٣]، وتـــارة ﴿كأنهن اليـاقوت والمرجان﴾ [الرحمن: ٥٨]، على الواحدة منهن سـبعون حُلَّة الحُلَّة الواحـدة تساوى الدنيا وما عليـها، لو نَظَرَتْ امرأةٌ منهن من باب خيمـتها لأضاء نور وجهـها ما بين السموات والأرض(١).

ولو تَفَلَتْ فى البحـر والبحـر مالح ... لأصبح مـاء البحر من ريقهـا عذبا
فـيـا بائعًا هـــذا ببـخسٍ مُعَجَّلِ ... كـأنك لا تدرى بلـى سـوف تعلمُ
فإن كـنتَ لا تدرى فتلك مـصيبة ... وإن كنت تدرى فـالمصـيبـة أعظم

ومـن الواجب علينـا نحـن المسلمين أن نؤمـن بأن الجنـة والنـار مخـلوقتـان موجودتان الآن، وما مـن رجـل إلا وقـد عُلِمَ مكانُه، وعُرِفَ مقعده فـى الجنة أو فى النار.

الجنة الآن موجودة، وأهلها معروفون، وخزنة الجنة: رضوان وأتباعه يعرفون أهل الجنة بأسمائهم، والحور العين فى الجنة يَعْرِفْنَ أزواجَهن من أهل الدنيا.

ولذلك لما عُرِجَ برسـول الله ﷺ إلى السـمـوات العلا، إلى سـدرة المنتـهى، عندها جنة المأوى، دخل الجنة وتجوّل فيها، ورأى فيها قصرًا من ذهب، فقال: لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من قريش، قال: ومن هو؟ قالوا: لعمر بن الخطّاب(٢).

وجاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «لا تؤذى امرأة زوجَها فى الدنيا إلا

---

(١) صحيح: رواه خ (٦٥٦٨/٤١٨/١١)، ت (١٦٩٩/ ١٠٠/٣).

(٢) متفق عليه: رواه خ (٣٦٧٩/ ٤٠/٧)، م (٢٣٩٤/١٨٦٢/٤).

قالت زوجتـه من الحور العين لا تؤذيه قاتلكِ اللهُ، فـإنما هو دخيل عندك، يوشك أن يُفارقكِ إلينا»(١).

فيا عبد الله اشترِ الآخرة بالدنيا، لا تغـرنّك الحياة الدنيا، فإنها غرّارة خدّاعة، فـتّانة، فلا تركن إلـيهـا ولا تطمـئن لها، وليكن هـمّك الآخرة، وحـرصك على الفردوس الأعلى.

معشر المسلمين هذه: ﴿جنّات عدن التي وعد الرحمن عـباده بالغيب، إنه كان وعده مـأتيّا * لا يسمعـون فيهـا لغوا إلا سلامـا، ولهم رزقهم فـيها بكرة وعـشيّا﴾ [مريم: ٦١، ٦٢].

فهل من مشمِّر لها، هل من راغب فيـها؟ هل من دافع لثمنها؟ إن الجنة أقرب إلى أحدكم من شـراك نعله(٢)، وثمنُها يسـيرٌ «من توضأ فأسبغ الوضـوء ثم قال: أشهد أن لا إلـه إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهـد أن محمداً عبـده ورسوله، فُتِحَتْ له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»(٣).

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار.

* * *

(١) صحيح: رواه ت (١١٨٤/ ٣٢٠/٢)، جه (٢٠١٤/٦٤٩/١).
(٢) صحيح: رواه خ (٦٤٨٨/ ٣٢١/١١).
(٣) صحيح: رواه م (٢٣٤/٢٠٩/١).

اختيار الأصدقاء

اليوم نختم رحلتنا هذه التى قضيناها فى رحاب اليوم الآخر، مبتدئين بالحديث عن القيامة الصغرى والقيامة الكبرى وأشراطها، ومنتهيين بالحديث عن تَبَوُّء الكافرين منازلهم فى دار البوار، وتبوّء المتقين منازلهم فى دار السلام.

اليوم وقبل أن نعود من هذه الرحلة المباركة ـ التى نسأل الله تعالى أن نكون قد تزوّدنا منها زاداً يبلغنا دار السلام ـ قبل أن نعود من هذه الرحلة لنا اقتراب من دار السلام لسماعٍ حديثٍ يدور بين أهلها، وقد تبوأوا منازلهم، واتكأوا على أسِرَّتهم، وراح عليهم الولدان بما يشتهون من الأطعمة والأشربة المختلفة، ثم أخذوا وهم كذلك يتذكّرون ما كان بينهم فى الدنيا، فلنقتربْ من دار السلام، ولنُلْقِ السمع إلى أهلها وهم يتحدّثون، بم يتحدّثون؟ وماذا يتذكرون؟ لنستمع إلى ربنا عزّ وجلّ، وهو ينقل إلينا ما يدور بين أهل الجنة من حديث، يقول ربنا تبارك وتعالى فى سورة الصافات:

﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم﴾. هذا خطاب للذين **﴿كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا اللَّه يستكبرون﴾**. ثم استثنى الله المتقين فقال: **﴿إلا عباد اللَّه المُخْلَصين * أولئك لهم رزق معلوم * فواكه وهم مُكرَمُون * فى جنات النعيم * على سُرُر متقابلين * يُطاف عليهم بكأس من معين * بيضاءَ لذةٌ للشاربين * لا فيها غَولٌ ولاَ هم عنها يُنزَفُون * وعندهم قاصرات الطرف عين * كأنهن بيضٌ مكنُون * فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قال قائل منهم إنى كان لى قرين * يقول أءنَّكَ لمن المُصَدِّقِينَ * أءِذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أءِنَّا لمدينون * قال هل أنتم مُطلِعُون ***

فاطَّلَعَ فرءاه فى سواء الجحيم * قال تاللَّه إن كدتَّ لتُردين * ولولا نعمة ربى لكنت من المُحضَرين * أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذَّبين * إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ [الصافات: ٤٠ - ٦٠].

إن الإنسان لا يستغنى عن الناس، وإن الفرد لا يستغنى عن الجماعة، وإن الإنسان لا يستطيع أن ينزوى فى قعر بيته ويعتزل الناس، فالإنسان كما يقولون مَدَنِى بطبعه، يحتاج إلى المخالطة، ويحتاج إلى الصلة، ويحتاج إلى تبادل العلاقات بينه وبين الآخرين.

ولما كان الإسلام ديناً شاملاً، ليس طقوسًا دينية تؤدَّى فى المساجد وحسْبُ، فقد نظم الإسلام شئون الحياة كلها، فنظم علاقة الفرد بربّه، وعلاقة الفرد بمجتمعه، فالمسلم ليس حراً فى إقامة علاقاته بالآخرين، وإنما المسلم مطالب أن تكون علاقته بالآخرين قائمة على أساس من الدين، فَيَصِلَ الصالحين من المسلمين، ويهجر الفاسقين، حتى يكون حبه لله، وبغضه لله، وذلك أوثق عُرَى الإيمان. ولذا جاء فى الحديث: «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تَقِى»[١]. وقال ﷺ: «أوثق عرى الإيمان الحب فى الله، والبغض فى الله»[٢]. وقال: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[٣].

فيا معشر الإخوة: إن المسلم مطالب أن ينتقى أصحابه كما ينتقى أطايب الطعام، إن المسلم مطالب أن يختار لصحبته أتقى الناس، وأعقل الناس، وأشد الناس حرصاً على طاعة الله وأبعد الناس عن معصية الله تعالى، إنه قد جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[٤].

إن الطبع يسرق من الطبع، وكثيراً ما يسير الإنسان فى الطريق الذى لا يهواه

---

(١) حسن: رواه د (٤٨١١/١٧٨/١٣)، ت (٢٥٠٦/٢٧/٤).

(٢) حسن: أخرجه الألبانى فى «الصحيحة» (١٧٢٨)، وقال: أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١٥٣٧).

(٣) صحيح: رواه د (٤٦٥٥/٤٣٨/١٢).

(٤) حسن: رواه د (٤٨١٢/١٧٩/١٣)، ت (٢٤٨٤/١٧/٤).

ولا يرغبه نزولاً على رغبة صاحبه. وإن للعدوى فى الأخلاق قانوناً كما هى فى الأجسام، فإذا كانت الأمراض الحسية تنتقل من الأجسام المريضة إلى الأجسام السليمة بإذن الله، وإلا فلو لم يشأ الله ما انتقلت، فإن العدوى تسرى بإذن الله، فإذا كانت عدوى الأمراض الجسمانية تنتقل من المريض إلى الصحيح بإذن الله، فإن الأمراض الخُلُقية هى الأخرى كثيراً ما تنتقل من سيىء الأخلاق إلى غير السيىء.

ومن المشاهد أنه لو صَاحَبَ رجلٌ غيرُ مدخن رجالاً مدخنين ـ مثلاً ـ لرأيت غير المدخن بعد أسبوع واحد من صحبته للمدخنين يدخن معهم، والعكس غير صحيح، فإن الرجل المدخن لو صاحب غير المدخن ما ترك تدخينه، وهذا إن لم يؤثر هو فى صاحبه فيجعله يدخن. هذا شىء مشاهد ومحسوس.

ولذا عُنِىَ الإسلام باختيار الأصدقاء، وعلَّم أبناءه أن يختاروا أصدقاءهم، وينتقوا من تشتد العلاقة بهم. فعلى المسلم أن يختار لصحبته من إذا ذَكَرَ الله أعانه، وإذا نسى ذكّره، وإذا نودى «حَىَّ على الصلاة» قام معه، لا يبطّئه عن عمل الخير، ولا يعينه على المعصية، فإذا فعل المسلم ذلك فاز ونجا، وسعد فى الدنيا والآخرة.

أما أصدقاء السوء فحدِّث عن شؤم صحبتهم ما شئت ولاحرج.

إن مصاحبة السيىء مشئومة فى الدنيا والآخرة، كما أن مصاحبة الصالح شرف فى الدنيا والآخرة، ويكفى أن الناس إذا رأوا رجلاً مع صالح قالوا إذا سئلوا عنه: إنه صديق فلان. وإذا رأوا آخر يمشى مع سيىء قالوا إذا سئلوا عنه: إنه صديق فلان، ولذلك قيل:

عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

نعود إلى حديث أهل الجنة وهم: **﴿على سرر موضونة * متكئين عليها متقابلين﴾** [الواقعة: ١٥، ١٦]، **﴿ودانية عليهم ظلالها، وذُلِّلَتْ قطوفها تذليلا * ويُطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدَّروها تقديرا﴾** [الإنسان: ١٤ - ١٦].

﴿قال قائل منهم: إنى كان لى قرين﴾ كان لى صديق من أهل الدنيا ملحد، شيوعى، مجوسى، وثنى، دهرى، كـافر، لا يؤمـن بالله ولا باليوم الآخـر **﴿يقول ...﴾** إذا لقينى **﴿أئنَّك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنَّا لمدينون﴾**، وهذا السؤال من الصديق الملحـد ليس سؤال استفـهام، وإنما هو سؤال توبيخ وتقريع وسـخرية واستهزاء بصديقه المؤمن الموحِّد.

تذكَّر الصديقُ المؤمنُ صديقَه الملحدَ وما كان يمليه عليه من الشكوك والشبهات ليردّه عن دينه، فقال لإخوانه فى الجنة: **﴿إنى كان لى قرين ...﴾** يقول كذا وكذا فى الدنيـا، والآن وقـد تبوَّأنا مـنازلنا فى الجنة ألا تحـبون أن ننـظر على أهل النار لنرى: أين منزل صـديقى الملحد فى دار الـبوار؟ **﴿قال: هل أنتـم مطَّلعون﴾** يعنى قال الصديق الموحِّد لإخوانه من أهل دار السـلام: ألا تطَّلعون على النار لتروا هذا الصديق الملحد **﴿وهم فيها يصطرخون﴾**. وبين الجنة والنار أبواب مغلقـة إذا شاء أهل الجنة أن ينظروا إلى أعدائهم فى دار البوار، ليشفوا صدورهم، ويذهبوا غيظ قلوبهم، فـتحوا الأبـواب فنظروا من أعلى عِلِّيِّين فى الجنة إلى أسفل سـافلين فى النار: **﴿فاطَّلَعَ فرآه فى سـواء الجحيم﴾** تصـلاه النار، وتحيط به من كل جـانب، فنادى المؤمنُ صديقَه الملحـدَ ـ سابقاً ـ: **﴿قـال تاللَّه إن كدْتَ لَتُرْدين﴾**. والله لقد كدت تخـرجنى من حظيرة الإيمان ولو فـعلتُ لكنتُ الآن معك، فالحـمد لله الذى عافانى وثبَّتنى على الإيمان **﴿ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين﴾**. ثم نظر إلى إخوانه من أهل دار السـلام وسألهم مطمـئناً على مستـقبله ودوام ما هم فـيه من النعيـم، فقـال: **﴿أفما نحـن بميتين؟! إلا مـوتتنا الأولى، وما نحن بمعذَّبين؟!﴾**، يا إخوتاه: هل الموت قـد ذهب عنا أبداً فلا نموت، وهل هذا النعـيم دائم أبداً فلا يفنى ولا يبيد ولا يمسنا العذاب فى هذه الدار؟ فـقالوا: نعم. فقال: **﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾**.

هذا صديق قـد نجا من فـتنة صديقه، وقـلّ من ينجو، لئن نجا هـذا من فتنة صاحبه الملحد ووسـاوسه وشبهاته وشكوكه التى لا يفتر عن إلقـائها على أصدقائه المؤمنين، لئن نجا هذا فـإن الذين يُفْتنون كثيـر، إن الذين يتأثّرون بكفر أصـدقائهم كثير وكثير، ولذلك يا مـعشر الإخوة لنحول النظر من دار السلام بعد أن رأينا هذا المشهد، التى نجا فـيه صاحبنا من أهل دار السلام من فتنة صـديقه الملحد، لنحول النظر بعد هذا إلى دار البوار، لـنرى صديقاً آخر لم يُعْصم من فتنة صـديقه، غلبه شيطانه الإنسى وشيطانه الجنّى فوقع فى الكفـر بعد الإيمان، لننظر من بعيد إلى دار البوار، لنرى صـديقاً صدّه صديقـه عن الإيمان بعد إذ جاءه، فمـاذا يقول ربنا عن هذا الصديق الآخر الذى لم يَنْجُ من فتنة صديقه:

يقول ربنا فى سـورة الفرقان حـاكياً نَدَمَ وأسَفَ هذا الصـديق على استجـابته لصديقه، وكفره بعد الإيمان، يقول تعالى:

﴿ويوم يَعَضُّ الظالم على يديه﴾، لم يكفه أن يعض عـلى يد واحدة، ولكن جعل يعض على يديه من شدة الندم والحسرة التى سكنت قلبه على ما فاته.

﴿ويوم يَعَضُّ الظالم على يديه يقـول يا ليتنـى اتخـذت مع الرسـول سبيـلاً * يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً * لقـد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى * وكان الشيطان للإنسان خذولا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

يُرْوَى أن هذه الآيات نزلت فى عقبة بن أبى معيط، وكان رجلاً حليماً لا يؤذى النبى ﷺ، فصنع طعـاماً ودعا النبى ﷺ فيـمن دعا، فلما حـضر رسول الله ﷺ الطعام لم يأكل. فـقال عقـبة: كل يا محمـد! فقال رسـول الله ﷺ: «ما أنا بآكل حتى تشـهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله! فـشهد بها عـقبةُ، فطار الخـبر إلى مكة. وكان أُبَىُّ بن خَلَف صديقاً لعقبة، وكان غـائباً بالشام، فلما حضر وسمع ما يقال عن إسلام عقبة، أتى عقبةُ للسلام علـيه، فحيّاه، فلم يرد عليه التحية، فقال

عقبة: مـا لك لا ترد علىّ تحيتى؟ فقال أُبَىٌّ: كيف أرد عليك تحيـتك وقد صبوتَ؟ قال: أوَقَدْ فعلتها قريش؟ قال: نعم. قال: فما يبرىء صدورهم إن أنا فعلته؟ قال: تأتيه فى مجلسه فـتبزق فى وجهه وتشتمه بأخبث مـا تعلم من الشتم. ففعل. فلم يزد رسـول الله ﷺ على أن مسح وجـهه من البـزاق، ثم التفت إليـه فقـال: إن وجدتك خارج مكة لأضربن عنقك صبـراً. فلما كان يوم بدر وخرج أهل مكة قال لأصحابه: وعدنى هذا الرجل إن وجدنى خارج مكة أن يضرب عنقى صبراً. وإنى أخشى على نفسى، فاخرجوا أنتم. فـقالوا: لك جمل أحمر لا يُدْرَك، فإن كانت الهزيمة طِرْتَ عليـه. فما زالوا به حتى خـرج معهم، فلمـا هزم اللهُ المشركين ركب جمله ليـفرّ فوحل به جـمله، فأخذه رسول الله ﷺ أسـيراً فى سبـعين من قريش فأعطـاه لرجل من المسلمين وقال: اضـرب عنقه. فـقال: أتقـتلنى من بين هؤلاء؟ قال: «نعم، بما بزقتَ فى وجهى» ، فـقتله، فباء بمقعـده من دار البوار. فأنزل الله فيه الآيات[1].

هكذا رأينا كـيف يؤثّر الصـديق فى صـديقـه. فاتقـوا الله فى أنفـسكم فـلا تصاحبوا إلا الأخيار، واتقوا الله فى أولادكم واعلموا أنكم مسئولون عنهم «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته»[2]، فراقبوا أبناءكم، وانظروا مع من يدخلون، ومع من يخرجون، فأقِرُّوهم على صحبة الصالحين، وانْهَوْهُمْ عن صحبة المفسدين.

واعلموا أن العلماء قد ذكروا لمن تختار صحبته شروطاً، وهى:

أن يكون عاقلاً، حسن الخلق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا[3].

أن يكون عاقلاً: فلا خير فى صحبة الأحمق، الذى يضر من حيث أراد أن ينفع.

---

(١) الدر المنثور (٦/٢٥٠) وقال: أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل بسند صحيح.

(٢) متفق عليه: رواه خ (٧١٣٨/ ١١١/ ١٣)، م (١٨٢٩/ ١٤٥٩/ ٣)، ت (١٧٥٧/١٢٤/٣)، د (٢٩١٢/١٤٦/٨).

(٣) مختصر منهاج القاصدين (٩٩).

وأن يكون حسن الخلق: فلا خير فى صحبة سيىء الأخلاق.

وأن يكون غير فاسق: لا يشرب خمراً أو محرَّمًا، لا يزنى، لا يرتكب المحرَّمات أبداً، فصحبة هؤلاء شؤم وخطر جسيم.

وألا يكون حريصاً على الدنيا: فإن الطبع يسرق من الطبع، قال ﷺ: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يُحْذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»[1].

نسأل الله أن ينفعنا بما علَّمَنا، ويُعَلِّمنا ما ينفعنا، ويختم لنا بالحسنى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

عبد العظيم بن بدوى الخلفى

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٥٥٣٤/ ٦٦٠/ ٩)، م (٢٦٢٨/ ٢٠٢٦/ ٤).

الفهـــــرس

الصفحة